فلسطين وتحرير الشارع العربيّ

ملف من إعداد: سماح إدريس (بيروت)

المشـــاركـــون

لاله خليلي

ماهر اليماني

Free Arab Voice

أحمد الخميسي

إبراهيم علّوش

محمد نجاتي طيّارة

خالد السفياني

المقرئ أبو زيد الإدريسي

ناصر البرغوثي

كان آباؤنا في الستينيّات يقولون إنّ على الشارع العربيّ أن يحرِّر فلسطين، فإذا بأولادهم يَكْتشفون أنّ فلسطين هي التي تُسْهم اليوم في تحرير الشارع العربيّ من كثير من قيوده وعيوبه فالمسيرات، والاعتصامات، وحملات الدعوة إلى مقاطعة البضائع الداعمة لاقتصاد «إسرائيل» (مع الاعتذار عن وضع دولة العدوّ بين مزدوجيْن كما علّمنا آباؤنا)، والندواتُ غيرُ المرخّصة من طرف الأنظمة، أَسْهمتْ جميعُها في أن يتحرّك المواطنون والمواطنات العرب دفاعًا عن أنفسهم لا دفاعًا عن فلسطين فقط. فتمازجت الشعارات الوطنيّة والقوميّة والإسلاميّة والعلمانيّة، وجرى حوار بينها وبين حامليها نتمنّى أن يتواصل، وسارت «السافرات» إلى جانب المحجَّبات، وترسّخ عداءُ الجميع للولايات المتحدة وللأنظمة المائعة، وبان لنا أنّ القوميّة العربيّة ـ التي بشّر بعضُ المثقفين أمثال فؤاد عجمي بموتها ـ مازالت حيّةً تُرْزق.

كانت فلسطين في شهر نيسان مرآةً لأنفسنا وقد تعرّيْنا من خوفنا وجُبْننا: أمام حرّاس السفارة الأميركيّة، وقوى الأمن، وروّاد مقاهي الأرصفة. استَعَدْنا كوفيّاتنا وشبابَنا الأوّل، واكتَشَفْنا أنّنا لم ننسَ الأغاني ولا الشعارات ولا شبقَ التّمرُّد، وأنّنا مازلنا نُحسن رميَ الحجارة وردَّ قنابل الغاز على مُطْلقيها

في الملفّ التالي مقالات كتبها مثقفون وناشطون من سوريا ومصر والأردن والمغرب ولبنان وإيران وأميركا (هناك شارع عربيّ وتقدُّميّ في أميركا أيضًا!)، يحاولون فيها رصدَ ما بثَّتْه فلسطين في الروح من اختلاجات، وكشْفَ مواطن العلل في ما هو ـ بالتأكيد ـ أحدُ أبرز إرهاصات الثورة العربيّة الجديدة.

س.إ

بيروت (١): رؤيةُ طالبةٍ إيرانيّةٍ مناهضةٍ للعولمة

لالهْ خليلي

الشارع العربيّ والمحاولات النِّظاميّة

عقب انتهاء أعمال القمّة العربيّة في بيروت مؤخّرًا، وبعد أن أَمر آرييل شارون جيشَ الدفاع الإسرائيليّ باجتياح مدن الضفّة الغربيّة وقراها ومخيّماتِ اللاجئين فيها، مدمِّرًا البنى التحتيّةَ للسلطة الفلسطينيّة ومتسبِّبًا بمقتل مئات الفلسطينيِّين المدنيِّين والعسكريِّين، جاء احتجاجُ رؤساء دول الشرق الأوسط وملوكها ضعيفًا خاويًا. وعلى العكس من ذلك تفجّرت الشوارعُ في الشرق الأوسط، عامةً، باحتجاجات عارمة بَلَغَتْ أحيانًا حدَّ الصدام مع قوى الشرطة والأمن، وأدّت إلى مقتلِ بعض المتظاهرين.

كلُّ وسائل الإعلام، الأميركيّة والأوروبيّة والعربيّة، وصَفَتْ وصوَّرت الأنهارَ البشريّةَ المتدفِّقة خلف الأعلام الملوّنة ـ التي كان كثيرٌ منها أعلامًا فلسطينيّة ـ وخلف يافطاتٍ تُعلن أهدافَ المتظاهرين وولاءاتهم. وقد سَمحت الاحتجاجاتُ بأن تؤوَّلَ بأشكالٍ عدّة، كما هي العادة. فمن جهة احتُفي بها لكونها عرضًا علنيّاً لقوّة المتظاهرين. ولكنْ على الجانب الآخر من الطيف ـ ولاسيّما حيث تُركِّز اللقطاتُ المأخوذةُ من زوايا غير جذّابة على رجالٍ غاضبين يَفْتحون أفواهَهم بين صرختيْن ـ اعتَبَرتْ وسائلُ الأعلام الأجنبيَّة المتظاهرين «مشاغبين» تتلاعبُ بهم الصحافةُ العربيَّةُ في أحسن الأحوال، ويَسْتعرضون عُنفَهم البدائيَّ في أسوإها. وراح الكتّابُ الجهابذة و«النقّادُ» يكتبون عن «الشارع العربيّ» وعن آثار غضبه المزعزِعة للأنظمة العربيّة «المعتدلة.»

أنْ يلعب «الشارعُ العربيُّ» دورًا بارزًا إلى هذا الحدّ في الخطاب السياسيّ وفي النقد الإعلاميّ في الولايات المتحدة، وأن تَسْتعرضَ معظمُ الصحف العربيّة ووسائل الإعلام صُوَرَ التظاهرات وأخبارَ التظاهرات إلى هذه الدرجة الهائلة، أمران يَشْهدان على قدرة الاحتجاج الجماهيريّ ـ وإنْ جزئيّاً في أقلّ تقدير ـ على التأثير في حساباتِ ومشاغلِ صُنّاعِ القرار في الولايات المتحدة وفي الشرق الأوسط معًا. فمعظمُ الأنظمة المحليّة «ترخِّص» الاحتجاجَ الجماهيريّ، أو تراقبه، أو تتحايل عليه. ولهذا، فإنّ اندلاع التظاهرات والاعتصامات ومسيراتِ الشموع الصامتة، حين تَبْدأ جميعُها من دون إذنٍ رسميٍّ، تُشكِّلُ ضغطًا أيضًا على الحكومة، أو على الأطراف الأخرى التي يُوجَّه الاحتجاجُ إليها. بعضُ الأنظمة تحاول أن تَكْسب شرعيّتَها المفقودةَ من خلال احتواء التظاهرات المستقلّة. والبعضُ الآخر يَسْمح بقيام التظاهرات لاعتقاده أنّها تشكِّل صِمامَ أمانٍ لإطلاق الاحتقان الشعبيّ المكبوت، مادامت هذه التظاهرات تَسْتهدف عدوّاً خارجيّاً بدلاً من السلطة المحليّة. والحال أنّ تظاهرات الاحتجاج تشير، على المدى القريب وفي غياب استفتاءات واستطلاعاتِ رأيٍ موثوقةٍ، إلى آراء مجموعات متعدِّدة داخل المجتمع. وهي على المدى البعيد ذاتُ آثارٍ غيرِ مقصودة في بعض الأحيان، كأنْ تدفع إلى التماسك (أو التنافر) الاجتماعيّ، وأحيانًا في ميادين لا علاقة لها على الإطلاق بـ «أَجَنْدة» الاحتجاج الأصليّة.

والحقّ أنّ التظاهرات الأخيرة المعادية لإسرائيل في المنطقة ـ والمعادية من ثمّ للولايات المتحدة ـ تَشْمل جميعَ الملاحظات السابقة وتَشْهد على صحّتها أيضًا. ففي غياب أنماط مشاركةٍ شعبيّةٍ مفتوحةٍ أو ديموقراطيّةٍ كان احتواءُ الأنظمة للتظاهرات واحدًا من أكثر التكتيكات وضوحًا للعيان. فمن أجل استرضاء الجماهير الفلسطينيّة الضخمة في الأردن، ومن أجل تأمينِ شرعيّةٍ سياسيّةٍ للنظام الأردنيّ عبر احتواء الاحتجاجات الشعبيّة، سارت الملكة رانيا (وهي بدورها من أصل فلسطينيّ) على رأس تظاهرة في عمّان. ولم يتمّ هناك استخدامُ التعبيرات السياسيّة للحديث عن معاناة الفلسطينيِّين في الضفّة وغزّة، بل اقتصر الأمرُ على استخدام التعبيرات الإنسانيّة وحدها. ولهذا الهدف نفسه سمحتْ أنظمةٌ خليجيّةٌ متعدّدة بجمع التبرُّعات الخيريّة للشعب الفلسطينيّ (التي قدّرتها مجلةُ **إيكونوميست** بـ ٣٠٠ مليون دولار).

في استعراضات «التضامن» العلنيّ تلك، لم يتمّ الحديثُ عن تواطؤ الأنظمة العربيّة الصامت على مصير الفلسطينيِّين، باستثناءِ ما

حين وصل پاول إلى لبنان عمدت قوات مكافحة الشغب إلى تطويق المحتجّين ومنعهم من الوصول إلى المطار

جاء على لسان بعض الأنظمة العربيّة (كنظامَيْ سوريا والعراق) التي كانت لها أسبابُها المحليّةُ الخاصّةُ لإدانة الصمت العربيّ. ولم يُسْمحْ إلاّ نادرًا بالحديث عن أنّ استخدامَ الدول العربيّة للعقوبات الاقتصاديّة قد يكون عملاً أعظمَ فائدةً للفلسطينيّين من التبرُّعات النقديّة (وهذه ضروريّةٌ هي أيضًا بالطبع). بل على العكس ذهبت السعوديّةُ والكويتُ إلى حدِّ طمأنة الولايات المتحدة إلى أنّهما لن تَسْتخدما «سلاحَ النفط»؛ ولم تفكِّر الدولُ العربيّةُ التي تقيم علاقاتٍ تجاريّةً هادئةً مع إسرائيل (والتي شريكُها التجاريُّ الأساسيّ هو الولاياتُ المتحدة) بقطع تلك العلاقات مع إسرائيل أو أميركا أو بتخفيفها. بل إنّ دولة الإمارات العربيّة المتحدة، إبّان أسوإ أيام الحصار الإسرائيليّ لرام اللّه وجنين، عبّرتْ عن تصميمها على شراء طائرات بوينغ بقيمة عشرات ملايين الدولارات!

في سوريا خرقتْ سلسلةَ التظاهرات التي سَمَحَ النِّظامُ بقيامها تظاهرةٌ عفويّةٌ وغيرُ مرخَّصة خرجتْ من مخيّمات اللاجئين الفلسطينيِّين المضبوطة بدقّة. المدهش أنّ التظاهرات غير المرخَّصة لم تُقمعْ، وإنْ لم تُبْرَزْ إلى جانب الأخبار «الرئاسيّة» الأخرى في الصحافة السوريّة. والحقّ أنّ أنباء هذه التظاهرات تسرّبتْ في معظمها عبر الأقوال التي تناقلها مراقبون لم يصدِّقوا ما كانوا يرونه.

في ٧ نيسان (أبريل)، وعشيّةَ وصول كولن پاول إلى المغرب في إطار جولته المتوسطيّة المترويّة قبل أن يحطّ في القدس، تظاهر حوالى مليون شخص في الرباط ضدّ الدعم الأميركيّ لإسرائيل. غير أنّ المتظاهرين المغاربة لم يُسمحْ لهم بالتظاهر إلاّ **قبلَ** وصول وزير الخارجيّة الأميركيّ، لا أثناء وجوده هناك. وحين وصل پاول إلى الضفّة الشرقيّة من المتوسّط، عمدتْ قواتُ مكافحة الشغب اللبنانيّة، المجهَّزةُ بخراطيم المياه وقنابل الغاز المسيلة للدموع، إلى تطويق المحتجّين في إحدى التظاهرات الصباحيّة الباكرة التي نظّمها حزبُ اللّه على عجل وشاركَ فيها طلابُ مدارس مُضْرِبة وفلسطينيُّون من مخيّم برج البراجنة، ومنعتْهم من الوصول إلى مطار بيروت.

ثمّة دول تصدّت للتظاهرات بالعنف المنظَّم: ففي البحرين أدّى مقتلُ أحد المتظاهرين على يد الشرطة أثناء مسيرة متوجِّهة إلى السفارة الأميركيّة في ٥ نيسان (أبريل) إلى اندلاع تظاهراتٍ عنيفةٍ أخرى في المنامة. وفي مصر انتهت المظاهرات، التي لم يشاركْ فيها تقريبًا إلاّ طلاّبٌ جامعيُّون غاضبون في القاهرة وبضع مدنٍ رئيسيّة أخرى، بعنفٍ دمويٍّ إذ قُتل أحدُ الطلاّب في الإسكندريّة في ٩ نيسان (أبريل)، واستُخدمتِ الهراواتُ وقنابلُ الغاز المسيلة للدموع بكثافة على الطلاّب في القاهرة. وقد ذكرتْ بعضُ التقارير أنّ الشرطة اعتذرتْ للطلاّب عن ردّها القاسي حين أجبرتْهم على العودة إلى حَرَم جامعة القاهرة ومنعتْهم من السير إلى السفارة الإسرائيليّة. وقام الرئيس حسني مبارك، وقد شعر بالضغط الشعبيّ، برفض لقاء كولن پاول، وأدلى بتصريحٍ ناريّ (نسبيًّا) ضدّ إسرائيل.

في السعوديّة هُدِّد المتظاهرون بالتوقيف الفوريّ إنْ هم اختاروا أن يَسْتعرضوا غضبَهم وإحباطَهم على نحوٍ جماعيّ في الشوارع. ولكنّ أحدَ البرامج الخيريّة جَمَعَ مبلغًا كبيرًا من المال لضحايا العدوان الإسرائيليّ الفلسطينيِّين، وسُمِحَ للجرائد التي تَمْلكها الدولةُ بنشر مقالات حادّةِ النبرة ضدّ إسرائيل (وضدّ الولايات المتحدة وإنْ إلى حدّ أقلّ بكثير).

في ضوء هذه المحاولات النظاميّة من الاحتواء والاسترضاء والقمع في بلدان الشرق الأوسط المختلفة كانت تظاهراتُ بيروت، حيث الحريّاتُ المدنيّةُ ماتزال أكثرَ من نظيراتها في تلك البلدان، قد نُظِّم أكثرُها على يد منظّمات سياسيّة مستقلّة تحظى بقاعدة شعبيّة، ولم ينظّم إلاّ القليلُ منها على يد السلطة نفسها. وقد شَملت التظاهراتُ الشعبيّة تشكيلةً واسعةً من الأطراف، وباتت تحدث في كلّ يوم مع بلوغ الهجوم الإسرائيليّ على البنى التحتيّة الفلسطينيّة ذروتَه. ويُمْكن تصنيفُ احتجاجات بيروت كالتالي: اعتصاماتٌ وحملُ شموع، حملاتُ مقاطعة بضائع، مسيراتٌ وتجمُّعاتٌ، وتظاهراتٌ عنيفة.

بيروت (١): رؤيةٌ طالبة إيرانية مناهضة للعولمة

أشكال التضامن في بيروت

فأمّا الاعتصامات وحملُ الشموع فكانت قد بدأتْ قبل القمّة العربيّة بزمن طويل (وذلك بحمل شموع في ساحة الشهداء في ٢٢ آذار، ومن جديد أمام مقرّ الأمم المتحدة في ٢٩ آذار أيضًا) واستمرّت منذ ذلك الحين. وثمّة حَمْلٌ للشموع جرى في كنيسة في محيط شارع الحمراء في بيروت الغربيّة، واستَقْطب نساءً فلسطينيّاتٍ من مخيّمات اللاجئين؛ وهو ما أطلق المجالَ لاتّحادٍ جديدٍ بعضَ الشيء، جمَعَ بين لبنانيّين ومسيحيّين فلسطينيّين من الطبقتَيْن الوسطى والعليا من جهة، ومسلمين أقلّ ثراءً قادمين من مخيّماتٍ بعيدةٍ عن شارع الحمراء بُعْدَها عن القمر من جهة ثانية.

إلى جانب الاعتصامات الظَّرْفيّة التي تَطْلع عفويّةً احتجاجًا على الدعم الأميركيّ لإرهاب الدولة الإسرائيليّة، ثمّة اعتصامان متواصلان يستحقّان تنويهًا خاصّاً. الأول بدأ في ٢٩ آذار (ومازال مستمرّاً حتى تاريخ كتابة هذا المقال) حين قامت مجموعةٌ من الطلاّب المستقلّين واليساريّين باحتجاج سلميّ أمام مبنى الأمم المتحدة في الوسط التجاريّ من العاصمة، ثم انتقل هذا الاحتجاجُ إلى ساحة الشهداء بطلب من القوى الأمنيّة اللبنانيّة. وعلى مرأًى من هذه القوى تَعَهّد الطلاّب الناشطون ـ الذين كانوا يَحْتمون من مطرٍ أولِ نيسان الشديد بِخيَمٍ نُصبتْ على عجل ـ أن يواصلوا احتجاجَهم حتى يُوقفَ جيشُ الدفاع الإسرائيليّ حصارَه لبلدات الضفّة الغربيّة. ونَصَب المحتجُّون لوحًا إعلانيّاً خشبيّاً، وَضَعوا عليه قصاصاتٍ من الجرائد والمجلات، وإعلاناتٍ عن نشاطات قادمة. كما عَرضوا أعمالاً فنيّةً وصورًا فوتوغرافيّة رسمها أو التقطها أطفالٌ فلسطينيُّون من مخيّمات اللاجئين في لبنان. وقد استقطب هذا الاعتصامُ زياراتٍ قام بها سياسيُّون (مثل وليد جنبلاط)، وناشطون يساريُّون معروفون (مثل ليلى خالد، التي حازت شهرةً عالميّةً بسبب خطفها طائراتٍ في أوائل السبعينيّات باسم الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين)، وعددٌ مغنّين وممثّلين وفنّانين قاموا بعروض ومهرجانات عفويّة حول مكان الاعتصام. غير أنّ الطلب الذي تقدّم به الطلاّب إلى بلديّة بيروت بهدف السماح لهم بنصب خيمة في الساحة نفسها ـ من أجل عرض أفلام وإقامة مهرجانات فنيّة ـ ضاع كما زُعِم في المتاهات البيروقراطيّة لبلديّة بيروت. وبعد يوميْن على «ضياع» هذا الطلب، سُمح لحزب اللّه بنصب خيمة ضخمة في المكان نفسه، وعلى شكل مسجدِ الصخرة، مع عَلَمٍ للحزب، إلى جانب علم فلسطين ويافطاتٍ تُعْلن «الموتَ لأميركا.»

وأمّا الاعتصام الثاني المتواصل فجرى أمام مبنى الأمم المتحدة، وفي خيمةٍ أرفعَ مستوًى من سابقتها، وحضره عدد من رؤساء المنظّمات غيرِ الحكوميّة المحليّة العاملة في مجال حقوق الإنسان، ولاسيّما تلك التي تَعْمل مع الفلسطينيّين. وقد تميّز هذا الاعتصامُ بشطارته الإعلاميّة، إذ جَلَبَ نشطاءُ هذه المنظّمات أطفالاً لقراءة الرسائل والقصائد، ودعوْا مصوّرين وصحفيّين وسياسيّين إلى مشاركتهم.

أمّا حملاتُ مقاطعة البضائع الداعمة للاقتصاد الإسرائيليّ فقد بدأتْ بحملة طلابيّة على حَرَم الجامعات، وانتشرت انتشارَ النار في الهشيم، لتغدو أعمالَ عصيان مدنيّ. وقام ناشطون سلميُّون بإغلاق بضعة مطاعم لبيرغر كِنْغ وماكدونالدز بمجرّد دخولهم إليها، وتطويقِهم منضدةَ المحاسبة في الداخل، وسدِّهم المداخلَ في الخارج. وقد تلقّت هذه الحملةُ دعمًا إضافيّاً حين اجتمع أساتذةُ الجامعة الأميركيّة في بيروت وموظّفوها وطلبوا من إدارة الجامعة سَحْبَ تعويضات الموظّفين من شركاتٍ يَمْلكها إسرائيليُّون وكانت جزءًا من صندوق الاستثمارات. وفي عدّة مخيّمات فلسطينيّة في لبنان، تمّ تجميعُ علب سجائر أميركيّة وإحراقُها في محارق ضخمة. وقد أوردتْ **فاينانشال تايمز** في نهاية نيسان (أبريل) أنّ عددًا كبيرًا من البائعين بالمفرّق في لبنان تحدّثوا عن هبوطٍ في مبيعات السجائر الأميركيّة. ودَعَمَ العلاّمة السيّد محمد حسين فضل اللّه، وهو واحدٌ من أهم مراجع الشيعة في لبنان، هذه الجهودَ حين دعا علنًا إلى مقاطعة البضائع الأميركيّة.

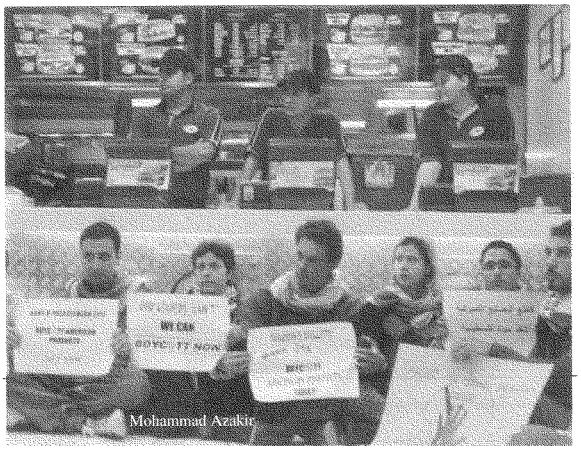

في بيروت قام ناشطون بإغلاق بضعة مطاعم لبيرغر كنغ وماكدونالدز بمجرّد تطويقهم منضدة المحاسبة

وأمّا المسيرات في بيروت فقد كانت هي أكثرَ أشكال الاحتجاج على الاجتياح الإسرائيليّ عددًا، وأبرزَها للعيان. بعضُها كان يبدأ من داخل المخيّمات الفلسطينيّة أو من محيطها، ولم تكن الجرائدُ أحيانًا تتحدَّث عنها، وغالبًا ما كانت قوى الأمن اللبنانيّة تَمْنعها أو تطوّقها بشدّة. فقبل بدء أعمال القمّة العربيّة في نهاية آذار (مارس) وُضعتْ دبّاباتٌ وآليّاتٌ عسكريّة لبنانيّة إضافيّة على مداخل تلك المخيّمات، وعند بؤر التجمُّع الفلسطينيّ مثل مقبرة شهداء شاتيلا. وأحيانًا كانت قوى الأمن تَمْنع المتظاهرين في مخيّم شاتيلا من مشاركة نظرائهم من مخيّم برج البراجنة الواقع إلى جنوبه. غير أنّ حالات المنع القليلة هذه فاقتْها عددًا المسيراتُ المنظَّمةُ والواسعةُ التي لم يشاركْ فيها أبناءُ المخيَّمات وحدهم، بل أعضاء كثيرون من الأحزاب اللبنانيّة المختلفة أيضًا.

والحقّ أنّ التظاهرات قد كانت عرضًا حقيقيّاً للحياة السياسيّة في المجتمع اللبنانيّ. ففي كل تظاهرة كان بإمكان المراقِب غيرِ المطَّلع أن يخمّن إلى أيّ تنظيم سياسيّ يُنْسب هذا العَلَمُ أو ذاك. ثمّة بعضُ التنظيمات التي تَسْهل معرفتُها من أعْلامها المرفرفة، كالحزب الشيوعيّ مثلاً، بمنجله ومطرقته. وهناك تنظيماتٌ أخرى ذاتُ رموزٍ مميَّزة، كحركة أمل بدائرتها التي ترسم اسمَ «أمل،» وكالحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ بزوبعته الحمراء. وتُعلن تنظيماتٌ وتجمُّعاتٌ أخرى عن نفسها بأعلامها، كما هو حالُ المرابطين وجمعيّةِ المشاريع والمنبرِ الديموقراطيّ والحزبِ التقدُّميّ الاشتراكيّ والتنظيماتِ الفلسطينيّة المختلفة (مثل فتح، والجبهة الديموقراطيّة، والجبهة الشعبيّة، وحماس، والقيادة العامّة، وبرز مؤخّرًا متعاطفون مع كتائب شهداء الأقصى). وتمكن معاينةُ علم حزب الله الأصفر عن بُعْد. هذه المسيرات غالبًا ما تبدأ من نقطة انطلاق محدّدة سلفًا (الملعب البلديّ أو المتحف الوطنيّ) وتنتهي دائمًا تقريبًا أمام مقرّ الأمم المتحدة في الوسط التجاريّ، حيث يُسَلِّم الناطقُ الرسميُّ باسم التظاهرة بيانًا لأحد ممثّلي الأمم المتحدة. والمدهش أنّ الطلاب المسيحيّين في جامعتَي القديس يوسف واليسوعيّة نظّموا مسيراتهم الخاصة دعمًا للفلسطينيّين، وتحدَّث ممثّلون عن حزب الكتائب في مسيرات وتجمُّعات مختلفة ضدّ إسرائيل.

والحال أنّ المسيرات إلى مقرّ الأمم المتحدة والتحشُّدات في شوارع بيروت، وجميعُها تناشد المجتمعَ الدوليّ التدخُّلَ، يجب تمييزُها من المسيرات التي جرت إلى السفارة الأميركيّة. فالمسيرات الأولى انتهت باستقبال المسؤول الإعلاميّ لها، الأستاذ نجيب فريجي، الذي كان يتلقّى بياناتِ الحشود نيابةً عن كوفي أنان، في حين أنّ السفارة الأميركيّة كانت تَرْفض أن تَبْعث بأيٍّ من ممثّليها لاستقبال المحتجّين حتى حين كان هؤلاء مجموعةً من المهنيّين السلْميّين تضمّ حوالى ٥٠٠ «مهندس ومحام وطبيبٍ وصيدليّ» كما وصفتْهم الأخبارُ بتاريخ ٥ نيسان (أبريل)، أو تجمُّعًا يَشْمل ألفَي امرأةٍ تمّ تنظيمُه بفضل عدّة منظّمات نسائيّة غير حكوميّة وبعضِ المحازبات (كما جاء في أخبار ١٠ نيسان). بل إنّ قوى الأمن نصبتْ حواجزَ تَبْعد حوالى كيلومتر عن مبنى السفارة، مانعةً المحتجّين والمحتجّات من الاقتراب من الأسلاك الشائكة المتعدّدة أو تخطّيها. وردّاً على ذلك، وفي مناسبتيْن اثنتيْن (٣ نيسان و١٢ نيسان)، قرّرتْ تنظيماتٌ شبابيّة راديكاليّة أن تسلّط مزيدًا من الضوء على هذه الاحتجاجات، فقام عناصرُها برمي الحجارة على قوى الأمن. فعمدتْ هذه إلى استخدام خراطيم المياه الشديدةِ الضغط، وقنابلِ الغاز المسيّلة للدموع، والهرواتِ، لتفريق الطلاّب، وأعادت رميَ الحجارة على المتظاهرين. وقد نجحتْ أساليبُ الشباب العنيفة هذه في تحقيق هدفٍ واحد على الأقلّ من أهداف المحتجّين المعْلنة، وهو حَرْفُ أضواء الإعلام المحليّ وتسليطُه على الدعم الأميركيّ للعدوان الإسرائيليّ. في هذه الحالات جميعها أفاد الاحتجاجُ أَجَنْدةَ الأحزاب المشاركة، وسَمَحَ بعرض مشاعر الغضب الشعبيّة من أعمال إسرائيل، وأدّى إلى نتائج إيجابيّة لم تكن مقصودةً أيضًا. فالاحتجاجات الشعبيّة

بيروت (١): رؤيةٌ طالبةٍ إيرانيّة مناهضة للعولمة

أحيانًا هي المجالُ الأوحدُ لشعبٍ محروم لا يَمْلك أيَّ وسيلة إعلاميّة، من أجل التوجُّه إلى ممثّليه السياسيِّين المفترَضين أو إلى مصادر القوّة الاقتصاديّة والسياسيّة. وبهذا، فإنّ وجود المتظاهرين الفلسطينيِّين في المسيرات داخل بيروت أمرٌ دالٌّ فعلاً. وأن لا يُمنع الفلسطينيُّون، بشكل عامّ، من المشاركة في هذه التظاهرات، فذلك أمرٌ إيجابيٌّ، مع أنّ حضورهم غالبًا ما كان يُطْمس بسبب وجود أحزاب لبنانيّة أكثر عددًا وتجهيزًا.

لو لم تَنْتجْ عن هذه المسيرات فائدةٌ سوى إظهار الشعب اللبنانيّ تضامنَه مع الفلسطينيِّين، فذلك شيءٌ دالٌّ في حدّ ذاته. وقد سَبَقَ أن ذَكَرْنا أنّ بعضَ الشخصيّات الكتائبيّة انضمّت إلى شخصيّات من أحزاب أخرى في شجب الاعتداءات الإسرائيليّة على الشعب الفلسطينيّ، وأنّ طلابًا من بيروت الشرقيّة شاركوا في التظاهرات. غير أنّ مظاهر الدعم هذه لم تكن عامّةً: فبَعد بعض المظاهرات التي كانت مدعاةً للخلاف (في نيسان)، وظَهرتْ خلالها بعضُ الشعارات الفلسطينيّة التي تهدّد بإحراق السّفارات إذا استُشْهد ياسر عرفات، شَجَبَ أتباعُ الجنرال ميشال عون (المنفيّ) هذه الشعاراتِ المُلْتهبةَ شجبًا شديدًا وحَذّروا الشعبَ اللبنانيّ من خطرِ أن «يتمدّد» التأثيرُ الفلسطينيّ «خارج المخيّمات.»[1]

فلسطينيّو لبنان والتضامن اللبنانيّ

وأمّا ردود الفعل الفلسطينيّة على مظاهر الدعم الشعبيّ اللبنانيّ فكانت متضاربةً بعضَ الشيء. ففي حين يعبِّر اللاجئون الفلسطينيُّون علنًا عن امتنانهم لأعمال التضامن اللبنانيّ، فإنّهم في السرّ يعلّقون بمرارةٍ على ما يَعْتبرونه نفاقًا واسعًا صادرًا عن الأحزاب السياسيّة اللبنانيّة. فقد قالت امرأةٌ من مخيّم برج البراجنة مثلاً: «إنّهم يَدْعموننا حين نُقتل في فلسطين، ولكنّهم يَنْسَون كيف نُعامَلُ هنا في لبنان!» وكثير من الفلسطينيِّين يكرِّرون القولَ اللاذعَ التالي: «كلُّهم يحبُّون فلسطين ويَكْرهون الفلسطينيِّين!» ويبدو أنّ مخاوفهم هذه تعزّزتْ أثناء تظاهرات طلبةٍ موارنة في جامعة القدّيس يوسف، حين سُمِعَ متظاهرون يُلْقون على الفلسطينيِّين في لبنان المسؤوليّةَ الكاملةَ عن اندلاع الحرب الأهليّة في لبنان ويَرَوْن أنّ مشاركتهم الخاصة في تلك المسيرة إنّما هي محضُ عملٍ من أعمال «الشهامة.» كما أنّ الدعوات إلى بناء دولةٍ فلسطينيّة وإلى تنفيذ حقّ عودة اللاجئين الفلسطينيِّين إلى ديارهم ليست بالضرورة تعبيرًا عن رغبة «خالصة» في بلوغ العدالة؛ ففي كثير من الحالات يكون الإصرارُ على حقّ عودة الفلسطينيِّين قناعًا يُخفي كراهيةً قويّةً لـ«توطينهم» في لبنان. غير أنّ تضارب المشاعر المتبادلة بين الطرفين تبدو مسألةَ أجيال بشكل قويّ: فالفلسطينيُّون الذين يَذْكرون الحرب الأهليّة اللبنانيّة هم أقلّ تسامحًا بكثير من الناشطين الفلسطينيِّين الأحداث سنّاً الذين يُنسّقون نشاطاتِهم اليومَ مع نظرائهم اللبنانيِّين وفي ميادين مختلفة. كما أنّ اختلاف الأجيال ظهر أيضًا في «إدانة» أعمال الشغب من طرف «التجمُّع الوطنيّ للإنقاذ والتغيير» أمام السفارة الأميركيّة، وكذلك في مشاعر الانزعاج التي عبّر عنها بعضُ الفلسطينيِّين إزاء احتكاك قوى الأمن اللبنانيّة بالشبّان الفلسطينيِّين الراديكاليِّين الذين كانوا يَرْمون الحجارة أثناء المسيرات باتجاه السفارة الأميركيّة في منطقة عوكر.

أين نجحت التظاهرات وأين فشلتْ؟

لقد قدّمتْ حركاتُ الاحتجاج التي شهدتْها الأسابيعُ الأخيرةُ خارطةً سياسيّةً للبنان ما بعد الحرب الأهليّة، وهي خارطةٌ يَنْبغي بالطبع قراءتُها بدقّةٍ والتفرُّسُ في تفاصيلها بما يتعدّى الأعلامَ الحزبيّةَ والشعاراتِ السياسيّةَ. ذلك أنّ قوّة هذه المجموعة

١ ـ جريدة **النهار**، ٦ نيسان ٢٠٠٢.

قررت تنظيمات شبابيّة راديكاليّة الوصول إلى السفارة الأميركيّة في منطقة عَوْكر، فووجهتْ بالعنف

السياسيّة أو تلك من القوى المشاركة في التظاهرات يجب ألا تُقاس فقط بعدد الأعلام و«الهتّيفة» لديها، بل تُقاسُ أيضًا في قدرتها على مثابرتها في إخراج مؤيّديها إلى الشارع مجددًا، وبقدرتها على ممارسة التعبئة العابرة للحدود الاقتصاديّة والاجتماعيّة والجنسيّة والإثنيّة والدينيّة والمذهبيّة. كما أنّ التزام المنظّمات بمبادئها المعْلنة يُمْكن قياسُه من خلال تكتيكاتها وأساليبها أثناء تظاهراتها. وبهذا يُمْكن القولُ إنّ الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ، وحزبَ الله بصورة خاصةً، قد كانا ناجحيْن بشكلٍ مميَّز من حيث حضورُهما الثابتُ والواسعُ في التظاهرات. غير أنّ تمتُّع كلا الحزبيْن بـ «حَظْوةٍ ما» من قبل القوى الإقليميّة يُساعد في زيادة صفوفهما، ويُعطيهما منبرًا للجَهْر بآرائهما لا تَمْتلكُه أحزابٌ صغيرةٌ أخرى.

هذا وقد نجح منظِّمو الاحتجاجات بشكل خاصّ حين دَعَوْا طيفًا واسعًا من الآراء السياسيّة إلى أن يكون لهم تمثيلٌ في صفوفهم. غير أنّ نزعة المساواة المدهشة لدى المتظاهرين لطّخْتْها إلى حدٍّ ما بعضُ الأخطاء التكتيكيّة: فمكبِّرات الصوت التي تَصمّ الآذانَ، وتصْدح بموسيقى عسكريّة تافهة، تَحْجب هتافاتِ جميع المتظاهرين الآخرين وتُضفي إيقاعًا عسكريًا على تظاهراتٍ هي في حقيقة الأمر تظاهراتٌ سياسيّةٌ وشعبيّةٌ. إنّ إذاعة هذه الموسيقى العالية في نهاية المسيرات، والتي تُقصي احتمالَ تلاوة قادة التظاهرات خُطَبًا علنيّةً، تَجْعل الجموعَ بُكْمًا لا هدف لهم ولا رأس. كما أنّ إصرار حَمَلة الأعلام في التنظيمات الإسلاميّة على التجمُّع عند تُخُوم المواكب الحزبيّة الأخرى، بحيث يَطْمسون أعلامَ ويافطاتِ هذه الأحزاب المنافسة عن عدسة المصوّرين وكاميرات التلفزيون، يَشْهد هو الآخر على هذه النزعة المعادية للديموقراطيّة. وهذه التنظيماتُ الإسلاميّة تشوِّه مواقفَها المعلنة عن المساواة بين الجنسيْن حين تَنْظر بعيْن الازدراء، بل والعداءِ، إلى محاولةِ امرأةٍ الالتحاقَ بالقسم «الرجاليّ» من التظاهرة (بملحظ أنّ المتظاهرين الإسلاميِّين مقسومون بحسب الجنس، بحيث تمشي النساءُ خلف الرجال). فأين وحدةُ الشعب في القضيّة؟!

كما نجحتْ تظاهراتُ بيروت في التعامل مع وسائل الإعلام إلى حدٍّ ما. فقد دَعَتْ وكالاتِ الأنباء المختلفة، فضمنتْ ظهورَ أخبارها في جميع الصحف الكبيرة المحليّة (وبعضِ الصحف العالميّة أيضًا). ومن الناحية العملانيّة نجحتْ في تنظيم المتظاهرين في الشوارع بحيث لا يكون الأثرُ البصريُّ للتظاهرات طفيفًا. كما أنّ كثيرًا من الشعارات تحدّث عن التضامن المسيحيّ ـ الإسلاميّ، وكان عددٌ كبيرٌ من اليافطات باللُّغة الإنكليزيّة؛ وهاتان حقيقتان تشيران إلى أنّ منظِّمي الاحتجاجات كانوا يتوجّهون إلى جمهورٍ عالميّ. ومن هذا المنطلق كان سيكون مفيدًا ربّما القيامُ بقدرٍ ما من الانضباط: فالمصوِّرون الأجانب مثلاً يميلون إلى تركيز عدساتهم على الأطفال الذين يَرْتدون زيًّا عسكريًّا (بما ينسجم مع الكليشيهات التي تتحدَّث عن «العرب الحَرْبَجيِّين»)، وهم على استعداد تامّ لأن يلتقطوا ـ وبشراهة ـ صورَ أطفال مدثَّرين بالأكفان ومزنَّرين بأحزمة ناسفة مزيّفة (ويَشْهد على ذلك عددُ المرات التي التقط فيها عشراتُ المصوّرين الأجانب صورةَ صبيٍّ واحدٍ، لا ثانيَ له، على هذه الشاكلة!). والحقّ أنّه بغضّ النظر عن الموقف الرسميّ الذي يتبنّاه المتظاهرون من أخلاقيّة التفجيرات الانتحاريّة وفعّاليّتها فإنّ عليهم أن يَعُوا أنّ صورة أطفال مزنَّرين بالمتفجّرات لا يمكن إلاّ أن تُعزِّز المسبَّقاتِ الظالمةَ التي يَمْلكها الجمهورُ الغربيُّ عن العرب والمسلمين.

وأخيرًا، فقد تمّ اختيارُ الطريق العامّ الذي سلكتْه التظاهراتُ بحيث تنتهي معظمُها أمام مقرّ الأمم المتحدة، في حين كانت أكثرُ التظاهرات المنطلقة من الضاحية الجنوبيّة لبيروت تنتهي عند مقبرة الشهداء في شاتيلا. ولا يُمْكن المرءَ أن يَغْفل عن القيمة الرمزيّة والبصريّة للموقع الأخير في تحفيز مشاعر التعاطف مع الشعب الفلسطينيّ. كما أنّ مناشدة المجتمع الدوليّ ـ ممثَّلاً بمقرّ الأمم المتحدة ـ إدانةَ العدوان

بيروت (١): رؤيةُ طالبةٍ إيرانيّةٍ مناهضةٍ للعولمة

الإسرائيليّ تتلاءم وأفضلَ أشكال العلاقات الدوليّة (وإنْ لم تكن هذه مطبّقةً في الأغلب). ومع هذا، فلمّا كان المَوْقعان كلاهما يَفْتقران إلى ساحة عامّة واسعة، فقد راح المتظاهرون يتفرّقون عند نهاية المسيرة، فيَذْهبون إلى شوارع جانبيّة، أو إلى المواقف المكتظّة بالسيارات. وفي رأيي أنّ اختيار «ساحة الشهداء،» ذاتِ المساحات المفتوحة الشاسعة، لتكون محطّةً أخيرةً للمتظاهرين سيقدِّم فائدةً أجلَّ لمجموع المتظاهرين، بما يَحْفظ تماسكَهم في نهاية التظاهرة ويعطي المتظاهرين إحساسًا عميقًا وبَصَريّاً بأعدادهم المروِّعة وبقوّتهم. كما أنّ تجمُّعًا في هذه الساحة سيَسْتغلّ القيمةَ الرمزيّةَ لساحة الشهداء بوصفها نقطةَ التقاءٍ لشطريْ بيروت، فيَسْمح للتظاهرات بأن لا تَقْتصرَ على الاحتجاج على أعمال إسرائيل العدوانيّة بل أن تكون رمزًا للوفاق الوطنيّ أيضًا.

غير أنّ بعض نتائج حركات الاحتجاج، كما سبق أنْ ذكرنا، لا تَنْبع بالضرورة من الأهداف الأصليّة المعْلنة. ولعلّ أوضح فائدة للتظاهرات الأخيرة هي خلقُ أطرِ عملٍ جديدةٍ للاحتجاج. فقد وَجَدَ الناشطون من مختلف الأحزاب أنفسَهم، وبما يتخطّى الحدودَ القُطْريّة والمذهبيّة والسياسيّة، يسير الواحدُ منهم إلى جانب الآخر: بل يكفي أنّ وجوهَ المتظاهرين وأعلامَهم غَدَتْ ـ بعد أسابيع من التظاهر ـ أليفةً واحدُها للآخر. فالحال أنّ الروابط العابرة للانتماءات السياسيّة والسياسات الحزبيّة تُبنى أحيانًا دون أن نَشْعر بها. وهذه الولاءاتُ الجديدةُ قد تُعين، بدورها، على بناء «ثقافةِ احتجاج.» والدول التي تتمتّع بثقافة احتجاج (مثل إيران أو فرنسا)، حيث يَنْزل الناشطون إلى الشوارع في كل الأوقات لإسماع أصواتهم، تربّي أيضًا في الجمهور إحساسًا أعمقَ بالالتزام السياسيّ.

لقد كانت تظاهراتُ بيروت ميدانًا لتعبئة متظاهرين لم يكونوا قبل هذه التظاهرات مسيَّسين أو ملتزمين. ففي عدّة مناسبات وجدنا نساءً فلسطينيّات كنّ في السابق يُعلنّ بقوّة أنّهنّ «يكرهْن السياسة» ينخرطن الآن بشغفٍ في أعمال الاحتجاج، ويَعْتبرن التظاهرات واجبًا أخلاقيّاً عاديّاً بدلاً من أن يكون نشاطًا سياسيّاً. والحقّ أنّ عبور السياسة على هذا النحو، من مجال السياسة في ذاته إلى عالم «الحياة اليوميّة» المحسوسة للمتظاهرين ومعاييرهم الأخلاقيّة، أمرٌ بالغُ الأهميّة بالنسبة إلى المنظِّمين إنْ قُيِّض له أن يُستخدَمَ قبل أن يحلّ فيهم تعبُ الاحتجاج.

كما أنّ توسيع عُدّة (ريبرتوار) النضال السياسيّ من خلال أساليبِ معارضةٍ جديدةٍ وخلاّقةٍ هو فائدة أخرى لأعمال الاحتجاج هذه. فللاعتصامات في خيمٍ مرتجلة، وللإغلاقات السلميّة لمطاعم أميركيّة تقدِّم الوجبات السريعة، صدى محليٌّ عميقٌ، ولكنّه صدى يَسْهل تصديرُه عبر شبكات عملٍ مباشرٍ عابرةٍ للحدود القوميّة. وربّما كانت الخطوةُ التالية برَسْم المتظاهرين في كل قطرٍ من أقطار الشرق الأوسط الخاضع للاضطهاد الإسرائيليّ والأميركيّ هي بناءُ شبكاتِ عملٍ إقليميّة وتنسيقُ النشاطات السياسيّة في ما بينها. ذلك أنّ الانعزال السياسيّ وتضييقَ أفق الاحتجاج في العالم العربيّ لا يؤدّيان إلاّ إلى تشجيع الأشكال المحافِظة والاستبعاديّة للاحتجاج ولأسبابه. وأما التواصل بين المنظِّمين في مختلف هذه الأقطار، والحوار المتواصل بين الناشطين ذوي الهموم الأمميّة وأولئك المعنيِّين بالقضايا المحليّة والقوميّة، فسيسمحان بنَشْر المهارات الاحتجاجيّة، وباستخدام التجارب والموارد التي ليست متوفِّرة لمنظّمي الاحتجاجات المحليِّين. وبهذا سيَسمح توسيعُ ميدان الاحتجاج، وبطرق محسوسةٍ وغيرِ محسوسة، بتعبئة الجماهير التي جَعَلَتْها عقودٌ من الكبْت والظلمِ والفقرِ المتزايدِ تبدو منعزلةً وخاملة.

بيروت

لالهْ خليلي

كاتبة إيرانيّة شابّة. طالبة دكتوراه في جامعة كولومبيا (نيويورك). ناشطة في مناهضة العولمة. تقيم حاليّاً في بيروت.

بيروت (٢): لماذا انتفض الشارع، ولماذا انطفأ؟

ماهر اليماني

السياق الفلسطينيّ لتحرُّكات الشارع العربيّ

بدأ العدوان الصهيونيّ العسكريّ المدعوم من الإدارة الأميركيّة على مدن فلسطين وبلداتها وقراها في ٢٩ آذار ٢٠٠٢ بهدف ضرب البنية التحتيّة للمقاومة الفلسطينيّة، التي شهدتْ في الأشهر الأخيرة من الانتفاضة تصعيدًا ملحوظًا. فقد باتت المستوطنات بفضل ضربات ثوّار المقاومة ثكناتٍ عسكريّةً، وبدأتْ حركةُ هجرة إسرائيليّة معاكسة ملحوظة، وتحطّم قطاعُ السياحة الإسرائيليّة تمامًا. وأدّت مقاومةُ الشعب الفلسطينيّ وفصائله المقاتلة، برغم ضعف الإمكانيّات مقارنةً بترسانة العدوّ الصهيونيّ والأميركيّ، إلى رفع شعارَي «الدولة الفلسطينيّة المستقلّة» و«إلغاء المستوطنات» باعتبارهما إمكانيّةً واقعيّةً.

وقد تحرّك الشارع العربيّ ، وأحيانًا الدوليّ، بمختلف فئاته، للتضامن مع الشعب الفلسطينيّ داخل مناطق سلطة الحكم الذاتيّ. ويعنينا في هذه السطور القليلة رصدُ تحرّك الشارع اللبنانيّ ـ الفلسطينيّ تحديدًا.

عجز الأحزاب في الغالب

كان الشارع اللبنانيّ ـ الفلسطينيّ مشدودًا الى الإذاعات والصحف ووكالات الأنباء، يتابع بالتفصيل اليوميّ كافةَ أحداث الانتفاضة الفلسطينيّة. ثم تنبّهت الأحزابُ والقوى والشخصيّاتُ الوطنيّة والإسلاميّة إلى ضرورة التحرُّك الميدانيّ لمناصرة الشعب الفلسطينيّ إزاء صموده وعجزِ الأنظمة العربيّة عن الضغط على الإدارة الأميركيّة لممارسة دورِها المزعوم في «رعايةِ» ما يُسمّى بـ «عمليّة السلام.»

إلاّ أنّ هذه الأحزاب والقوى والشخصيّات، بيسارها ويمينها ووسطها، كانت هي نفسُها عاجزةً عن وضع برنامج حقيقيّ لدعم الانتفاضة وإسنادها. وكان ذلك ملحوظًا من خلال التجمُّعات والمظاهرات التي اتّخذتْ، في الغالب، أشكالاً فئويّة. وكنّا نلاحظ أيضًا تعدُّدَ المظاهرات والتحرُّكات في اللّحظة ذاتها وفي مناطق مختلفة، كلٌّ يحاول إبرازَ ذاته من خلال الشعارات أو التسابق في رفع أعلامه، محاولاً إظهارَ وجوده في الساحة اللبنانيّة، أو ساعيًا إلى إعلام سلطة الحكم الذاتيّ بنشاطه وتأييده لها ـ وهذا ما حصل في تجمُّع المدينة الرياضيّة بشكل بارز.

لكنّ أسوأ ما في الأمر هو أنّ الأحزاب والقوى اللبنانيّة الوطنيّة والإسلاميّة لم تَنْتبه، وهي في غمرة نشاطها، إلى أنّها كانت تَرْتكب مغالطة هامّة بأنْ شغلتْ نفسَها بتأييد الفلسطينيّين في الداخل في حين غابت عن دعم الفلسطينيّين في لبنان! فكيف نكون مع الفلسطينيّين في الداخل، وضدَّهم في الخارج؟ خذْ مظاهرةَ نوّاب بيروت، والحديثَ في المجلس البرلمانيّ عن الانتفاضة و«ضرورة» دعمها: أليس مفارقًا ومحْزنًا أن يكون معظمُ نوّاب هذا المجلس هم الذين وافقوا على مجموع القرارات المتعلّقة بالتضييق على الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة للفلسطينيّين في لبنان؟! هل غاب عن المجلس الكريم أنّ الشعب الفلسطينيّ واحد: من جنين إلى شاتيلا وعين الحلوة ونهر البارد؟

لقد كان الشارع اللبنانيّ ـ الفلسطينيّ متخبِّطًا في كيفيّة التضامن مع شعب فلسطين في الداخل، بل هو نسي ـ ويا للأسف ـ أنّ هناك لاجئين فلسطينيّين في لبنان يعانون ما يعانون من شظف العيش وحرمانهم من العمل والتضييقِ عليهم أمنيّاً وسياسيّاً. واقتصرت التحرُّكات على التضامن مع فلسطينيّي الداخل، بدلاً من أن تَعْمد القوى الوطنيّةُ تحديدًا إلى رفع شعار «إعطاء الفلسطينيّين في لبنان حقوقَهم المدنيّةَ والسياسيّة» تعزيزًا لانتفاضة فلسطين.

كما أنّ بعض الأحزاب والقوى عمدتْ إلى تحويل التضامن مع الشعب الفلسطينيّ إلى تضامن مع شخص عرفات، فركّزتْ (من

بيروت (٢): لماذا انتفض الشارع، ولماذا انطفأ؟

خلال شعاراتها) على وضعه الصحيّ والغذائيّ؛ بل إنّ بعضها اعتبر عرفات هو فلسطين، وفلسطين هي عرفات. وبذلك كانت هذه الأحزاب تَهْرب من مهامّها الحقيقيّة، وتَقْصر تحرُّكاتها على انفعالات شخصيّة أو على انتقاد إبراز عجز الأنظمة، بدلاً من أن تبادر هي نفسها (أي الأحزاب) إلى تفعيل خططها لدعم فلسطينيّي لبنان الذين كانوا ـ ومايزالون ـ الخزّانَ البشريّ الفيّاضَ لحركة المقاومة الفلسطينيّة.

دور الشباب

غير أنّه من المفيد أن نُبْرز دورَ المنظّمات الشبابيّة في إسناد الانتفاضة هنا. فقد كانت هذه المنظّمات تتحرّك بشكل مقبول، وكان نشاطُها مبرمجًا إلى حدٍّ كبير. إذ شكّلتْ نقطةَ ارتكاز في وسط المدينة. وكانت لحركتها آثارٌ إيجابيّة في تنفيذ خططها اليوميّة، سواء في اختيار أماكن الاعتصام والتظاهر، أو في اجتراح أساليب جديدة في الاحتجاج كالعمل الحثيث والمدروس لمقاطعة البضائع الأميركيّة والأوروبيّة الداعمة لاقتصاد العدوّ الصهيونيّ، أو في سعيها إلى توزيع الملصقات والبيانات إلى أكبر فئات المجتمع. والأهمّ كان الحوارات التي تدور في مراكز الاعتصام، ولاسيّما مع الأجانب.

ولا بدّ أيضًا من التنويه في هذا المجال بنشاط هذه المنظّمات الشبابيّة في تحدّي القوى الأمنيّة في منطقة عَوْكر، معقلِ السفارة الأميركيّة، حيث استمرّت المواجهةُ أكثرَ من ساعتين كان المتظاهرون يحاولون خلالهما الوصولَ إلى السفارة إعلانًا عن إصرار لا يلين على أنّ الإدارة الأميركيّة حليفةٌ مباشرةٌ للعدوّ، وعلى أنّها ـ من ثمّ ـ جديرة بأن يواجهها الشبابُ العربيُّ كما يواجه أخواتُهم وإخوانُهم في فلسطين العدوَّ الصهيونيَّ المدجَّجَ بالسلاح الأميركيّ والدعم السياسيّ الأميركيّ.

الشعارات: ما غاب، وما حَضَر (وليته لم يَحْضر!)

أخطر ما برز في المظاهرات هو تلك الشعارات التي كان بعضُها يُعطي نظرةً أحاديّةً للصراع مع العدوّ الصهيونيّ ـ الأميركيّ، مثل الشعار الإسلاميّ المتعصّب «خيْبر خيْبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود،» أو تلك التي حاولتْ أن تقزِّم ذلك الصراعَ فتحصره بشخص عرفات كما ذكرنا.

وفي المقابل، غابت الشعارات التي تَنْقد السلطة الفلسطينيّة بوصفها سلطةً عاجزةً إلاّ عن قمع المناضلين والمجاهدين الفلسطينيِّين. فلقد كان أكثرُ المتظاهرين يُدْركون مفهومَي «الإسناد» و«الوحدة الوطنيّة» على غير حقيقتهما. فانتقاد السلطة لزجِّها المناضلين في السجون ليس إلاّ تصويبًا لمسار الثورة، وتنبيهًا للسلطة بأنّها هي التي تَخْرق هذه الوحدة. والسكوتُ عن القمع ليس انتصارًا للانتفاضة، بل هو إسهامٌ في إضعاف جذوتها والتعجيلِ في تقديمها لقمةً سائغةً على طاولة المفاوضات.

كان يُمْكن

كان بإمكان هذه المظاهرات والتحرُّكات أن تكون فعّالةً بشكل أفضل بكثير لو حصلتْ لقاءاتٌ تفصيليّة بين الأحزاب والقوى والشخصيّات الوطنيّة والإسلاميّة للاتّفاق على الحدّ الأدنى من مطالب هذه التحرُّكات التضامنيّة، بغضّ النظر عن الاختلافات الإيديولوجيّة والسياسيّة. وكان يُمْكن أيضًا تحديدُ أماكن التظاهرات كي لا تتشتّت أصواتُ المتظاهرين وقوّتُهم. وكان يُمْكن أن تَعْقد هذه الأحزابُ والشخصيّات لقاءات وطنيّةً جماهيريّة، تَسْتمع فيها الجماهيرُ إلى مواقفها. وكان يُمْكن أن تكون هناك مظاهراتٌ في الأحياء والشوارع الصغيرة، بعيدًا عن آلات التصوير التلفزيونيّة، بهدف تعبئة الجماهير بشكل يوميّ وفعّال. وكان يُمْكن، أخيرًا لا آخرًا، أن يُعْمل على إشراك أكبر عدد من

غابت الشعارات التي تنتقد السلطة الفلسطينيّة لقمعها المناضلين

الفنّانين والشخصيّات الجماهيريّة المعروفة توسيعًا لدائرة الفعل التضامنيّ مع الشعب الفلسطينيّ.

ولكنْ، للأسف، عقدت السلطةُ الفلسطينيّةُ صفقات مذلّةً مع العدوّ الصهيونيّ وأميركا. فرضختْ لشروطه، وحاكمت الأبطالَ الذين صَفُّوا أحدَ أبرز رموز الصهيونيّة البغيضة رحبعام زئيفي، وحَوّلت الأمينَ العامَّ للجبهة الشعبيّة أحمد السعدات ومسؤولَ ماليّة حركة فتح فؤاد الشوْبكي إلى سجن أريحا بواسطة حرّاس بريطانيِّين وأميركيِّين. وواصلت السلطة، وتواصل، تنفيذًا للتعليمات الأميركيّة الصهيونيّة بضرورة اعتقال الناشطين من المنظّمات الفلسطينيّة، كما حدث يوم ٢٠٠٢/٤/٥ حين اعتقلتْ مجموعةً من كوادر الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، وكما حدث منذ أيام في غزّة حين اعتقلت السلطةُ «المُفْرَجُ عنها» عشراتِ المجاهدين في غزّة. وكل هذه الممارسات أثّرتْ سلبًا على روح الشارع اللبنانيّ - الفلسطينيّ والشارع العربيّ عامّة.

مخيّم مار الياس

ماهر اليماني

عضو اللجنة المركزيّة العامّة للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين.

نصائح مهموسة إلى المتظاهر العربيّ

غادر إلى موقع التظاهرة قبل ساعات.
لا تتخلّ عن مجموعتك.
لا تَحْمل أوراقًا أو دفتر تلفونات.
نظّفْ مكتَبكَ أو بيتكَ من أيّ موادّ قد تضرّ بكَ عند التوقيف.
على كل مجموعة أن يكون معها هاتف خلويّ واحد على الأقل.
ارتد ثيابًا خفيفة وحذاءً خفيفًا وألوانًا غير فاقعة.
تجنّب الشعارات التي تخلق الانشقاقات.
رصّ الصفوف وامسك بيد رفيقك.
ناشدْ قوى الأمن أن تلتحقَ بصفوفكم.
إذا حدثت اشتباكات حافظْ على رباطة جأشك، وابقَ مع مجموعتك.
وزّعْ أنت ورفاقك سطولَ الرمل على امتداد المظاهرة.
ارمِ الرمل على قنابل الغاز.
خذْ بصلاً معك لمقاومة الغاز.
إذا جُرح أحدكم لا يَحْمله إلا اثنان أو ثلاثة، واذهبوا به إلى طبيب موثوق.
خذْ معك مساعدات طبيّة أوليّة.
عند انتهاء التظاهرة لا تذهبْ إلى البيت إذ شعرتَ أنّك مُلاحق.

مقتطفات من مقال طويل جداً في موقع «الصوت العربيّ الحرّ».
www.freearabvoice.org

مصر: الغضب الشعبيّ، إلى أين؟

أحمد الخميسي

ذروة الغضب

ما إنْ تبنّت القمةُ العربيّةُ في بيروت (٢٧ – ٢٨ مارس) المبادرةَ السعوديّةَ للسلام وما طرحتْه من تطبيع مع إسرائيل واعترافٍ كاملٍ بها، مقدَّميْن مسبَّقًا، حتى جاء الردُّ الإسرائيليُّ في ٢٩ مارس بعمليّة اجتياح بربريّةٍ للضفّة الغربيّة، استكمالاً لحرب ١٩٤٨ «التي لم تُسْتكمل» على حدّ تصريح رئيس الوزراء الإسرائيليّ آرييل شارون. وكانت مشاهدُ البطولة الخارقة والقسوة قد شَحَنَتْ بالغضب الجماهيرَ المصريَّةَ على مدى عامٍ ونصف من الانتفاضة، أيْ منذ دخول شارون ساحةَ المسجد الأقصى في ٢٨ سبتمبر بحراسة ثلاثة آلاف عسكريّ. وانطلقت المظاهراتُ من كلّ ركن في مصر. وفي ٣ أبريل تقدَّم المواطن أحمد محمود من محافظة القليوبيّة ببلاغٍ يَطْلب فيه مساعدتَه في العثور على ابنه وائل (١٣ عامًا) الذي اخْتفى تاركًا خلفَه رسالةً كَتَبَ فيها: «إذا أردتَ العثورَ عليَّ فستجدني مع المقاتلين الفلسطينيِّين.» وفي ٦ أبريل احتشد الطيّارون المصريُّون في مسيرة بمطار القاهرة الدوليّ، وطالبوا بوقف كلّ الرحلات المتّجهة إلى إسرائيل.

وسرعان ما قدّم طلبةُ جامعة الإسكندرية أولَ الشهداء، واسمُه محمد السقا الذي قُتل برصاص الشرطة المصريّة في ٩ أبريل، عندما تصدّت قواتُ الأمن لمظاهرة من نحو ثمانية آلاف طالب حاولوا الخروجَ من الجامعة والتوجُّهَ إلى المركز الثقافيّ الأمريكيّ في شارع الفراعنة لإعلان احتجاجهم على الدعم الأمريكيّ المطْلق لإسرائيل. وكان محمد السقا قد قال لوالدته صباحَ يوم مصرعه: «عاوزْ أموت موته حِلْوه ترفرف على الدُّنيا.» وكان له ما أراد. ولم ينقضِ أسبوعٌ حتى حاول ميلاد محمد (٢٣ سنة ـ فلاّح) أن يجتاز في ١٧ أبريل الحدودَ من رفح إلى فلسطين، فتصيّده قنّاصٌ إسرائيليّ من أحد أبراج المراقبة وقَتَله. ويقول ربيع مبروك، صديقُه، إنّ الشهيد قال له قبل سفره إلى رفح: «حياتنا حرام في ضوءِ ما نراه في فلسطين.» وفي جنازة ميلاد بمدينة الدلنجات في محافظة البحيرة بكت أمُّه وهي تُطْلق الزغاريد هاتفةً: «شَرَّفْت العرب يا زين الشباب.» وفي ١٨ أبريل حاولتْ فتاةٌ مصريّة أخرى عبورَ الحدود من طابا وهي تَحْمل كميّةً من المتفجِّرات للالتحاق بالانتفاضة. وفي ٢٠ أبريل أفادت التقارير أنّ مصريّاً هاجم سائحًا إسرائيليّاً يُدعى فرانك ماي، أثناء سيْره على شاطئ البحر الأحمر قرب مخيم نجم البدوي، وطعنه بسكّين فقتله؛ وصرَّح ناداف كوهين من السفارة الإسرائيلية في مصر بأنّه لا يدري إنْ كان الدافعُ وراء الجريمة سياسيّاً أم جنائيّاً. وفي ٢٠ أبريل نظرتْ محكمةٌ مصريّةٌ في دعوى تقدَّمت بها السيدة درية رامي لطرد السفير الإسرائيليّ جدعون بِنْ عامي من الفيلا الخاصة بها التي يقيم بها السفيرُ في المعادي.

وفي أبريل نفسه أعيد من الحدود قرابة ١٥ تلميذًا إلى ذويهم، تتراوح أعمارُهم ما بين ٩ سنوات و١٥ سنة، كانوا قد هربوا إلى العريش ورفح للقتال في فلسطين. وفي ٤ مايو اعتقلت الشرطةُ المصريّةُ شابّاً من حي الزاوية الحمراء الشعبيّ بالقاهرة يُدعى محمد عزب (٢٠ عامًا) عند الشريط الشائك في رفح لدى محاولته التسلُّلَ إلى غزّة للقتال مع الفلسطينيِّين. وفي ٥ مايو أحالت السلطاتُ المصريّة إلى النيابة شابَّيْن بتهمة محاولة عبور الحدود، الأول سلامة غنيم (٢٤ سنة) والثاني شكري عودة (٢٦ سنة): وعند سؤال الاثنين قالا إنّهما تأثّرا بالأحداث في فلسطين وقرّرا الانضمام إلى المقاومة. وللمرة الأولى منذ اندلاع انتفاضة الأقصى يَظْهر في مصر طَلَبَةٌ يلَفّون رؤوسَهم بعصابة حمراء كُتب عليها: «استشهاديون.» وحين فَتَحت الجامعاتُ قوائمَ المتطوّعين للقتال في فلسطين عُبِّئتْ بمئة ألف اسم من الشباب. وفي العريش تُوفّيتْ سيدةٌ في الخمسين من عمرها بذبحةٍ من شدة القهر، وهي تتابع أخبارَ فلسطين أمام شاشة التلفزيون. ذلك أنّ ما جرى كان أفظعَ وأشدَّ قسوةً من قدرة العقل على احتماله أو تصوره، فأسال دموعَ المصريين وأشْعل حنقهم.

استيقظ المصريّون وسألوا: أين جيشنا المصريّ، وعلام كان تسليحه إذا لم ينفع الآن؟

وتطايرتْ شراراتُ الغضب ردودَ أفعالٍ شعبيّةً، وفرديّةً، وبطوليّةً، من حريق مظاهراتٍ لم تهدأْ بمصر. و لم تبقَ جامعةٌ أو مدرسةٌ أو جامعٌ أو بيتٌ أو دكانٌ أو روضةٌ للصغار لم تَخْرج إلى الشارع. وللمرة الأولى بعد ربع قرن من توقيع مصر على معاهدة السلام المصريّة ـ الإسرائيليّة في ٢٦ مارس ١٩٧٩، تصبح السياسةُ عملَ كلّ فرد في كلّ مكان وكلّ وقت: صباحًا وظهرًا ومساءً؛ في سيّارات الأجرة، وداخل المعاهد، والمقاهي والمساجد والكنائس والنقابات والجامعات والبيوت؛ في المحادثات الهاتفيّة، وعبر الانترنت، وبواسطة الرسائل القصيرة المتبادلة على المحمول. لقد أصبح «الحدثُ الخارجيُّ» فجأةً «حدثًا داخليّاً» من صميم الشأن المصريّ. ولم يعد هناك أحدٌ، كبيرًا أو صغيرًا، إلا وتمنّى أن يموت «ميتةً جميلةً ترفرف على الدنيا» كما قال محمد السقا لوالدته. يقول الطالب أحمد نصر من جامعة القاهرة، التي شهدتْ أعنفَ مظاهرات طلابيّة: «أنا على استعداد للقيام بأيّ شيء من أجل فلسطين، خاصةً في ظلّ تخاذل الحكومات العربية.» ويقول أسعد بكر وهو تلميذٌ في الثانية عشرة: «أنا لا أكره سوى إسرائيل.. وعلى استعداد لفعل أيّ شيء.. لتفجير نفسي من أجل الفلسطينيّين.»

وإلى جوار مشاعر التعاطف الحارّة مع شعبٍ يباد، تغذّى الغضبُ من اعتبارٍ آخر كان يَخْرج ببطء من العتمة إلى ضوء الوعي. ذلك أنّ المظاهرات قُمعتْ في كلّ بلد عربيّ بشكلٍ أو بآخر، وسَقَطَ منها شهيدٌ في البحرين هو محمد جمعة علي (وهو عاملُ نظافة) توفّي في ٧ أبريل متأثّرًا برصاص الشرطة المحليّة وهي تواجه المظاهرةَ في ٤ أبريل، وشيَّعت البحرين جثمانَه ملفوفًا بالعلم الفلسطينيّ. وفَتَحَت السجونُ في كل بلد عربيّ أبوابَها للكثيرين: واعتقلت السلطاتُ في مصر مثلاً الطلبةَ الناصريّين والماركسيّين والقوميّين وقياديّين وسياسيّين أغلبُهم من التيّارات الإسلاميّة النشطة. وبينما كان الفلسطينيّون يَجْمعون أشلاءَ أحبّائهم قطعةً قطعةً من مخيّم جنين، دان الأمير بندر، السفيرُ السعوديُّ في واشنطن، العمليّاتِ الفدائيّةَ في ٢٤ أبريل. وكشفت الأنظمةُ العربيّةُ عن هوانها في مواجهة المجزرة، وعن قلة حيلتها. وفي حين قَطَعت النيجر علاقاتها الدبلوماسيَّةَ بإسرائيل في ٢١ أبريل، لم تجرؤ الحكومة المصريّة على طرد السفير الإسرائيليّ أو وقفِ بيع بترول مصر الذي استُخْدِمَ وَقودًا للدبّابات الإسرائيلية وهي تَرْصف أزقّةَ جنين بضلوع الأطفال وعيونهم.

صحوة العقل المصريّ

شيئًا فشيئًا كانت مشاعرُ التعاطف الحارة تختلط بشعور عميق بمرارة المهانة والخديعة. فقد تبيّن للجماهير المصريّة بشكلٍ ساطعٍ أنّ الأنظمة، التي مارستْ دومًا أحقرَ أشكال الغطرسة في الداخل، قد خدعتْها طويلاً بمظهرها، فاستكان الناسُ إلى الخوف منها، وهي ليست إلا نمرًا من ورق، فلماذا إذن تهيَّبوها طوال تلك العقود؟ ومنذ أن وقّعتْ مصر معاهدةَ السلام مع إسرائيل في ٢٦ مارس عام ٧٩ والمصريّون يترقبون السلامَ، إنْ لم يكن الرخاء. لكنهم وجدوا أنّ فتاتَ ذلك السلام نفسه غيرُ آمن، ومهدَّدٌ بتصريحات إسرائيليّة علنيّة بقصف السدّ العالي واقتحامِ الجنود الإسرائيليين لمناطق حدوديّةٍ في رفح بدعوى البحث عن الفلسطينيّين. إذن، لا رخاء، ولا سلام، بل ولا نصف دولة فلسطينيّة تَحْفظ ماءَ وجه العرب وتصون لهم الأماكنَ المقدّسةَ على الأقلّ. لا شيء سوى المجزرة، وتمريغِ كرامة القادة العرب، وحصار عرفات وإجباره على استنكارِ دماء الشهداء، والتلويح بضرب كلِّ مَنْ تسوّل له نفسُه أن يفتح فمَه. أما شهداؤنا وقتلانا فإنهم ليسوا سوى «قتلة ومجرمين» على لسان البيت الأبيض الأمريكيّ. وتبخّرتْ في الشارع المصريّ من شدة المهانة كلُّ المياه التي صُبَّتْ لغسل العقل الوطنيّ من دماء الحروب مع إسرائيل، ولتذويبِ علاقته التاريخية بقضايا التحرُّر العربيّة، ولتمزيقِ قرابته إلى الشعب العربيّ.

مصر: الغضب الشعبي، إلى أين؟

كان الجميع قبل اجتياح ٢٩ مارس يعرفون «ما هو الموضوع في مصر،» واستيقظوا فجأةً يسألون جميعًا: ما هو الموضوع؟ أين اتفاقيّات كامب ديڤيد؟ ألم يمرّ عليها عشرون عامًا؟ ألا تصبح ملغاةً تلقائيّاً؟ كيف يمكن التطبيعُ مع دولةٍ نازيّة كتلك؟ أين جيشُنا المصريّ؟ وعلام كان تسليحُه زمنًا طويلاً إذا لم يَنْفع الآن؟ ولماذا نعيش في ظل قانون الطوارئ منذ عام ١٩٨١ إلى الآن؟ ولِمَ تبدو الشرطةُ المحليّة في كثير من الأحيان كأنها ترتدي أزياءَ الجنود الإسرائيليّين وتُمْسك بعصيّهم وتنوب عنهم في قمع الراغبين في مساندة الفلسطينيّين؟ ولماذا لم يستطع القادةُ العرب أن يقدِّموا سوى مبادرةِ سلامٍ خانعةٍ في قمّة بيروت، سَبَقتْها مبادرةٌ ليبيّةٌ بضمّ إسرائيل إلى الجامعة العربيّة، ثم مبادرةٌ ليبيّةٌ أخرى بتذويب الشعب الفلسطينيّ في دولة «إسراطين»؟ ولماذا كان أقصى ما تمكّنوا منه هو الدعوة إلى وقف ضخّ النفط، وهي دعوة جاءت من بغداد المنهكة فلم يستجب إليها أحدٌ بل قالت الكويت «إنّها دعوةٌ مشبوهةٌ»؟ وكيف تمكّنتْ نيجيريا ومقاطعتان في بلجيكا ـ وهي الأبعد ـ من قطع علاقاتها بإسرائيل ولم تجرؤ دولةٌ عربيّةٌ على ذلك؟

من هذه الزاوية كانت المظاهرات المصرية «حدثًا» بكلِّ ما رافقها من صحوة فكريّة ـ صحوةٍ جَرَّبتْ في الواقع العمليّ كيف ترتطم بالنظام في الشارع، وراقبتْ في الواقع العمليّ أيضًا كيف أَمْكن كيلومترًا مربّعًا واحدًا اسمُه جنين أن يَصْمد وحدَه عشرةَ أيام كاملة في وجه أعتى قوّة عسكريّة في العالم ليُحيي من جديدٍ طريقَ الكفاح المسلّح والتحرُّر.

وبلور الشارعُ المصريُّ غضبَه في شعارات المظاهرات التي كان الطلبةُ قوّتَها الرئيسيّة بحُكم ما لديهم من أماكن للتجمع، وبحكم أعمارهم الشابة، وذلك الجنوحِ للأمل الذي يتّسمون به. إنّهم الطلبة الذين تشكّل وعيُهم على ضوء الضربات الأمريكيّة المستمرّة للعراق وفلسطين. إنه جيل جديد انقطعتْ صلته بالحركة الوطنيّة ربعَ قرن، ووضعتْه الظروفُ في مواجهة أمريكا وإسرائيل مباشرةً من منطلقات سياسيّة متعددة. جيلٌ بلا أحزاب، بعد أن أسلمتْه أحزابُ المعارضة جميعًا إلى الإعلام الرسميّ في صفقة مع الحكومة، وتخلّى عنه اليسارُ مع زوال الاتحاد السوفيتيّ، وأفقدت الضرباتُ الأمنيةُ المتلاحقة الإسلاميّين قوتَهم.

وتبلورتْ شعاراتُ الطلبة وفق التيارات الفكريّة المختلفة في المجتمع المصريّ. فالتيار الإسلاميّ كان يَهْتف في الأزهر، موجِّهًا نداءه للشيخ أحمد ياسين زعيم «حماس»: «ياسين.. يا حبيب.. دمِّرْ، دمِّرْ تلّ أبيب»؛ و«خيْبر خيْبر يا يهود.. جيش محمد سوف يعود»؛ و«الجهاد.. الجهاد.» وأمّا الناصريُّون فكانوا يردِّدون: «عبد الناصر قالها في يوم.. اللي اتّاخدْ يومْ بالقوة ما بيرجعشي غير بالقوّة.» الماركسيّون القلائل من الجيل الجديد كانوا يهتفون: يا شارون يا حقير.. حقّ العودة والمصير،» ويحاولون ترويجَ شعاراتٍ عَلْمانيّة ترسِّخ الفهمَ السياسيَّ غيرَ الدينيّ للمواجهة مع إسرائيل. وأما الغالبيّة العظمى من الشباب فكانت تردِّد: «بالروح بالدم نفديكِ يا فلسطين»؛ و«أول مطلب للجماهير.. غَلْق سفارة وطَرْد سفير.» تلاميذ المدارس الصغار كانوا يَخْبطون أكفّهم بالكرّاسات في الهواء هاتفين: «واحد.. اتنين.. الجيش المصري فين؟»

تضاريس المظاهرات

رغم أنّ الطلبة كانوا هم القوّة المحرّكة المسموعة في مختلف الجامعات، فإنّ المظاهرات التي عمَّتْ مصرَ تجاوزتْ بأعمار مَنْ شاركوا فيها المرحلةَ السِّنيَّةَ للطلبة (١٨ – ٢٥ سنة)، فانخرطتْ فيها شرائحُ من كل الأجيال، من ستّ سنوات إلى سبعين عامًا. ومن الصعوبة بمكانٍ أيضًا أن تُنسب المظاهراتُ إلى تيّار سياسيّ بعيْنه، أو طبقةٍ بعينها؛ فقد عمّت المظاهراتُ مصرَ كلها، وشاركتْ فيها كلُّ الفئات بدءًا من فقراء الأزقّة في المدن والريف وانتهاءً بفتياتِ و نساءِ الأرستقراطيّة المصريّة من أغنى الطبقات. ومع

كانت القضيّة القوميّة، لا القضيّة الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة، هي التي هزّت مصر من شمالها إلى جنوبها

احتفاظ الشعار الدينيّ الإسلاميّ بوجوده الواضح، إلاّ أنّه تراجَعَ نسبيّاً لصالح الشعارات القوميّة التي جَرَفَت الجميعَ؛ كما انحسرت النعرة الدينيّة التي كانت أحرصَ ما تكون على التمييز بين المسلم والمسيحيّ.

ولوحظ – للمرة الأولى ـ الكثافةُ الشديدةُ للعنصر النسائيّ داخل المظاهرات. وكانت طالباتُ جامعة القاهرة يَقْفزن في المظاهرات إلى واجهات المصفَّحات وسيّاراتِ المطافئ التي تَفْتَح خراطيمَ المياه لتفريق الطلبة، ويُلْصقن على زجاجها الأماميّ الملصقاتِ لكي تعوِّق السائقَ عن الرؤية والتقدُّم إلى الأمام. فتياتٌ أخريات كنّ يتسلقن أعلى أسوار النقابات ويهتفن في مواجهة الشرطة بأقْذع الشعارات: «يا أبناء العاهرة.. القدس هي القاهرة.»

وللمرة الأولى أيضًا تشارك طالباتُ وطلبةُ المدارس الأجنبية التي عُرِفتْ دومًا بميلها إلى التهوين من المشاعر القوميّة لدى تلاميذها. وأصبحت الجامعةُ الأمريكيّة، التي تقع في قلب القاهرة ويَدْرس فيها أبناءُ القادرين، بؤرةً ساخنةً للحركة والتظاهر وجمْع التبرعات، أسوةً بالمدارس الأجنبيّة الأخرى مثل ڤيكتوريا كوليدج والليسيه والفرير وإنجلِشْ سكول. وفي ١٥ أبريل تحرك طلبةُ ڤيكتوريا كوليدج في اتجاه مسكن السفير الإسرائيليّ بالمعادي للإعلان عن موقفهم، لكنّ الشرطة تمكنتْ من تطويق المظاهرة.

وللمرة الأولى يَضْغط الشارعُ لتوجيه الإعلام الرسميّ الذي طالما وجّه وبلورَ الرأيَ العامّ. فأخذ التلفزيون لأول مرة منذ زمن بعيد يبثّ الأغنياتِ والأفلامَ الوطنيّةَ القديمة التي رافقت الحروبَ العربيّة الإسرائيليّة، ويبيح هامشًا للنقاش الحرّ بشأن قضيّة فلسطين والصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ، وآراءِ الفئات الشعبيّة. واتّسعت الصحافة ـ نسبيّاً ـ لمختلف الآراء. لقد قلبَ الشارعُ المصريُّ الوضعَ رأسًا على عقب، وأصبح يوجِّه الصحافةَ والتلفزيون، بعد أن كان دورُه محصورًا في التلقّي السلبيّ.

غياب... وتردُّد

لكنّ المظاهرات الشعبيّة، رغم الصحوة الفكريّة وشعورها بقوتها، ظلت بلا زعامة أو مركز أو بؤرةٍ قادرةٍ على الانتقال بها من الحركة العفويّة المتدفّقة إلى وعاءٍ منظّمٍ يصون لها حرارتَها وقدرتَها على التواصل، كما كانت عليه الحالُ في تجربة «اللجنة العليا للطلبة والعمّال» عام ١٩٤٦ أو مظاهرات الطلبة عام ١٩٧٢. ولم تكن هناك أيضًا «زعامةٌ فرديّةٌ» تحيط بها تلك الهالةُ السحريّةُ من القبول العامّ، والقدرة على تأجيج الغضب، كما حدث في مظاهرات الطلبة عام ٧٢ حين قال الكاتب الكبير توفيق الحكيم عن أحدِ زعمائها وهو أحمد عبد الله: «لم يسبقْ لي أن استمعتُ إلى زعيم مفوّه بعد سعد زغلول سوى زميلكم الأستاذ أحمد عبد الله.» وافتقرت المظاهراتُ أيضًا، باعتبارها حركةً شعبيّةً وطقسًا للتحرُّر، إلى برنامج تُجْمِع عليه القوى السياسيّةُ الحيّة.

كما أنّ الحركة ظلت تراوح بين دعم فلسطين كقضيّة خارجيّة، ومواجهةِ الحكومة لتغيير الوضع الداخليّ كأفضل سبيل لدعم فلسطين. وكان السؤال الرئيسُ الذي يَلُوح ويختفي مختلطًا هو: «كيف نشدّ أزر المقاتلين هناك؟ ولكنْ.. أليس من الأفضل أن نَضْغط لوقف بيع البترول المصريّ لإسرائيل لكي لا يكون وقودًا لدبّابات شارون؟» إنّ التردُّد بين هذين الطريقين للتضامن مع فلسطين ظل مربَكًا، وغائمًا، وحائرًا: بين ضرورة التعجيل بضخّ الدماء والمال والمتطوعين لفلسطين وتأجيل أية قضايا أخرى موقّتًا، وبين الإدراك الكئيب لحقيقةِ أنّ العائق الحقيقيّ أمام وصول أيّ دعم هو الحكومة المصرية نفسُها ومعاهدةُ السلام. وبدا ذلك الارتباك في التردد بين شعارات من نوع: «يا حرية فينك فينك؟ أمْن الدولة بيني وبينك»؛ وبين شعارات أخرى تكتفي بتأييد فلسطين. وهكذا لم يتّضح للمظاهرات ـ في أول مسوّدة ضخمة لصحوة العقل الوطنيّ ـ ذلك الحبلُ الغليظُ الذي يَرْبط تلَّ أبيب بالعواصم العربيّة، ولا تبينتْ لها الحقيقةُ التي اكتشفها جمال عبد

مصر: الغضب الشعبيّ، إلى أين؟

الناصر في الفالوجا عام ٤٨، وهي أنّ تحريرَ فلسطين يبدأ بتحرير مصر.

وبالرغم من كل ذلك، فقد مزّقت المظاهراتُ المصريّةُ أطرافَ الثوب الرسميّ، وجذبتْه، وهلهلتْه. لكنّ الشوارع التي حُرمتْ طويلاً من العمل السياسيّ لم تبلورْ بعدُ ما تريده بدقة، ولم تستقرَّ بعد على «زعامة» ولو موقّتًا. ومع ذلك فقد سدت المظاهراتُ فجوةً اتّسعتْ في الذاكرة ربعَ قرن: بين أجيال شهدتْ أو سمعتْ عن حروب ١٩٥٦، و١٩٦٧، وحرب أكتوبر ١٩٧٣، واجتياح لبنان عام ١٩٨٢ من جهة... وأجيالٍ جديدةٍ عاشت على وهم «معاهدة السلام.» وانتعشتْ من جديدٍ روحُ المقاومة في رسائل لا تتوقف عبر الإنترنت، والهاتف المحمول، والتجمُّعاتِ التي تتقدَّمُ للتبرُّع بالدم، والمناقشات الساخنة في كل ركن، والبياناتِ الحادة، والمؤتمراتِ الجماهيريّة، وقوائمِ مقاطعة السلع الأميركيّة التي يُسلِّمها كلُّ فردٍ إلى الآخر، بلَ والإضرابِ عن العمل الذي قام به عمّالُ مترو الأنفاق في القاهرة. وربما لم يكن لأولئك العمّال أن يجرأوا على القيام بذلك الإضراب بمطالبه الاقتصاديّة لولا طقسُ الحريّة العام الذي أشاعته المظاهرات. وانتشرتْ شرائطُ كاسيت لمطربين شعبيّين بأغنيات تقول إحداها: «مَعْلِشْ يا عمّ بوش.. ع البُرْج اللي انضربْ.. الضربة لعلعتْ ومشيت سمعت.. عاوزين طيَّارة تانية تفرِّح العربْ!»

لقد وُلد الغضبُ الشعبيُّ العارم من الألم لما يَحْدث في فلسطين. ووُلِدَ أيضًا من طعم الخديعة المريرة التي جعلت الجماهيرَ تُسْلم قيادَها طويلاً لأنظمة عاجزة. وكانت القضيّة القوميّة، لا القضية الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة، هي التي هزّت مصرَ من شمالها إلى جنوبها، في المدن والقرى التي كان الفلاّحون فيها يقدّمون آخرَ جوال أرزّ في بيوتهم لدعم الفلسطينيين. وللمرة الأولى منذ ربع قرن يلتئم النسيجُ المصريُّ الاجتماعيُّ والسياسيُّ حول شعارٍ ومشروع جنينيّ لم يكتمل بعدُ بوضوح: المقاومة. وللمرة الأولى أيضًا يحاول الشتاتُ السياسيُّ المصريُّ لملمةَ روحِه المبعثرة، وأفكاره، وإرادتِه، كما يلملم الفلسطينيون أشلاءَ أحبّائهم قطعةً قطعةً من تحت أنقاض عمليّة أوسلو.

وفي هذا الإطار كان اعتصامُ المثقفين والكتّاب والفنّانين وإضرابُهم عن الطعام لنحو عشرة أيام، منذ يوم الثلاثاء ٢٣ أبريل في نقابة المحامين، بهدف حمل الحكومة على طرد السفير الإسرائيليّ من مصر. وحوّلت تلك الأيامُ العشرةُ مقرَّ النقابة المفتوح إلى خليّة حيّة، يتحرّك فيها مخرجون سينمائيُّون مثل علي بدرخان وتوفيق صالح، وكتّاب مثل بهاء طاهر وإبراهيم منصور، وقصّاصون وناشرون مثل محمد هاشم، وصحفيُّون مثل يحيي وجدي وكارم يحيي، وروائيُّون مثل سميّة رمضان، وشعراء، وفلاحون، وطلبة، وفنّانون تشكيليّون، يبيتون كلَّ ليلة على أرض الجامع الملحق بالنقابة، من أجل قَطْع كافة العلاقات الدبلوماسيّة مع الكيان الصهيونيّ. ولكنّ هذه قصة أخرى، رغم أنّها أول أشكال الاحتجاج التي تلجأ إلى سلاح الإضراب عن الطعام.

شيء واحد غدا مؤكّدًا للأطراف كلها: أنّ الصورة لا يُمْكن أن تَرْجع إلى ما كانت عليه قبل مظاهرات أبريل، وأنّ أيّة رتوش لن تعيدَ ما أحرقتْه ألسنةُ اللهب.

القاهرة

أحمد الخميسي

صحفيّ وقصاص ومترجم. له العديد من الكتب والمقالات. حاصل على الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة موسكو. وهو المراسل الجديد لمجلة الآداب في مصر.

عمّان: ملاحظات على هامش الحركة المساندة للانتفاضة ـ محمد علي كياناً سياسيّاً عقلانياً

إبراهيم علُّوش

أين ذهب محمد علي؟

لنفترضْ أنّ ثمة مواطنًا عربيّاً اسمُه محمد علي. محمد علي، في العادة، مثقل بالهموم المعيشيّة والخاصّة، وقد تم تهميشُه في عمليّة صنع القرار السياسيّ المتعلّق بشؤونه العامة طوال قرون. إنّه لاجئ سياسيّ على أرض بلاده. مجرد غريب.

محمد علي يحترق غضبًا بسبب كلِّ ما يراه حوله. لكنه لا يحتاج إلى إظهار ذلك دائمًا؛ فقد تعلّم أنّ أيّ تعبير حقيقيّ عن السخط باهظُ الثمن. بيد أنّ انفجاراته العفويّة بين الفينة والأخرى تدلّ على وجود نبضات حيويّة في أعماق وعيه (الجمعيّ).

وهذا لا يقول شيئًا بعدُ عن مدى فائدة هذه الانفجارات العفويّة أو فاعليّتها، سوى أنّ ردّ الفعل الشعبيّ العربيّ إبّان حرب الخليج الثانية، وتحريرِ جنوب لبنان، والانتفاضةِ الثانية، بل ردّ فعله على أغنية مثل «أوبريت الحلم العربيّ،» يدلّ على وجود إشارات حيويّة قويّة. وبهذا نعرف، على الأقلّ، أنّ محمد علي يضطرب في الأعماق.

فلنلاحظْ كيف نزل محمد علي إلى الشوارع في تشرين الأول ٢٠٠٠، أيْ في الأيام الأولى للانتفاضة الثانية، كطوفان من الغضب الخام، ليواجه القمعَ على أيدي رجال الأمن، وكيف عاد في آذار ونيسان ٢٠٠٢ إلى سَوْرة غضبٍ أكثر عنفًا على نحوِ ما أظهرتْ وسائلُ الإعلام.

إنّ هذا أمرٌ مثيرٌ للفضول فعلاً. فمحمد علي كان مستعدّاً للمخاطرة بعمله ودراسته، وللتعرُّض لشتّى صنوف الضرب والاعتقال وما شابَهَ في تشرين الأول ٢٠٠٠، ولكنْ ليس في تشرين الثاني وما تبعه، وما لبث أن عاد إلى الشارع في آذار ونيسان ٢٠٠٢ ، ليبدو بعدها وكأنه أخلد إلى الهدوء!

بدا محمد علي كمن تملّكتْه اللامبالاة، فاترًا بعيدًا، بعد تشرين الثاني ٢٠٠٠. لم تعد الفعاليّات التي يدعو إليها النشطاءُ تجذب جمهورًا ذا شأن: بل في الكثير من الحالات كان عددُ قوات الأمن التي تَنْتظر أكثرَ من عدد المتظاهرين. وفي الأردن على الأقل، بدا النظام وكأنه سيطر على حركة الشارع مجدّدًا بعد قيام أحزاب المعارضة بإلغاء مسيرة الزحف المقدّس التي كان يُفترض أن تتمّ يوم ١٢ نيسان/ أبريل ٢٠٠٢ على السفارة الصهيونيّة.

ماذا حدث؟ أين ذهب محمد علي؟ بدأ عددٌ من النشطاء المستقلّين يتفكّرون بما جرى.

عادةً، محمد علي، القادمُ من التظاهرات الكبيرة نسبيّاً التي وقعتْ فيها صداماتٌ في عمان على الأقلّ، طالبٌ أو عاملٌ يعيش في الأحياء الشعبيّة أو المخيّم، أو طالبٌ يعمل على الهامش ليساعد عائلته. يومٌ واحدٌ في السجن يؤثّر سلبًا في عائلته. في الحالات الأكثر خطورةً، قد يُمنع من العمل أو الدراسة؛ وهذا ضررٌ دائم. قد يصادَر جوازُ سفره، كما كان يحدث أيام الأحكام العرفيّة، فلا يعود قادرًا على الدراسة أو العمل في الخارج. وهو ليس معروفًا في الدوائر الإعلاميّة؛ فحين يَقْبع في السجن أو المستشفى، لا أحد يسمع عنه شيئًا.

بعد تفرّق إحدى التظاهرات مرةً، لاحظتُ ثلّةً من سيارات الأمن تَتْبع مجموعةً من حوالى عشرين طالبًا. اقترحتُ عليهم أن يتفرّقوا كيْ لا يصبحوا عرضةً للانتقام. تفرقوا إلى مجموعاتٍ من ثلاثة إلى خمسة، لكنْ يبدو أنّ ذلك لم يكن كافيًا لرجال الأمن. فقد توجّهوا نحو واحدٍ من الطلبة بالتحديد. ركض. لاحقوه. فجأةً، اعترضتْه قوةٌ عند الشارع الثاني. تبعتُ. وجدتُه ممدّدًا على الأرض في حقلٍ سوريالييٍّ من الرفس والضرب العنيف، أَشْبه بمشهدٍ من الضفّة الغربيّة، لا عمّان. حاولتُ التدخُّلَ بلا جدوى. «اذهبْ وإلا...» حاولتُ التكلُّم. لا جدوى. ذهبتُ. تبعني اللباسُ المدنيّ. «قف. مَنْ أنت؟ هويتك!» ومن الخلف جاء صوتٌ: «أَحْضروه.» «ما علاقتكَ به؟» «أستاذ جامعي؟ ماذا تفعل هنا؟» «كنتُ أمشي في الشارع. فرأيتهم يضربون محمد علي وهو ذاهب إلى بيته.» أحدهم: «اذهبْ.» أحدهم: «اعتقلوه. لماذا يتدخل في ما لا يعنيه؟!» «اتركوه.» تركوني. أخذوه.

عمّان: ملاحظات على هامش الحركة المساندة للانتفاضة ـ محمد علي كيانًا سياسيًا عقلانياً

بعد أيام، وجدني هذا المحمد علي بالذات. وحصلتُ منه على إفادة موقّعة بما جرى معه. إنه طالب في كليّة، يعمل نصف النهار ليعيل عائلته، لكنه يطمح إلى الحصول على شهادة. عمره خمسةٌ وعشرون عامًا. ذهبوا بعد الإفراج عنه إلى كليّته وهدّدوه. بحث عني ليشكرني، وهو الذي يستحقّ الشكر. ولكنه طلب مني بعد ذلك ألاّ أذْكر اسمَه في أيّ مكان، وألاّ أثير حوله ضجّة. ولم أره بعد ذلك.

هو واحدٌ من مئاتٍ مثله. فكرتُ مليّاً بأمر محمد علي. إنه أذكى بكثير ممّا يعتقد المثقفون. فمحمد علي مستعدٌّ لتحمُّل ضربات الأنظمة والصهاينة، ولكن ليس بالضرورة عندما تشاء هذه الشخصيّةُ المشهورة أو ذلك الحزب. إنه مستعدٌّ للموت والسجن كما أثْبَتَ مرارًا، ولكنْ فقط عندما يَشْعر أنّ شيئًا مفيدًا قد يَنْجم عن ذلك. محمد علي مستعدٌّ للمخاطرة بسُبُل عيشه واستقرارِ عائلته، ولكنْ عندما يأمل أنّ ذلك لن يكون بلا جدوى.

يختلف الأمر كثيرًا بين نزول محمد علي إلى الشارع وتنزُّهِ مجموعةٍ من «المسيّسين» ضمن سياج الخطوط الحمراء. فهو يَعْرف أنّ جهاز الأمن صُمِّم من أجله بالذات. والخَطْب يصير أكثرَ وحشيّةً عندما يتعلّق بأشخاص حقيقيّين إذا خرجوا من مكان الدراسة والعمل إلى الشارع؛ فالأنظمة تخاف كثيرًا من محمد علي، لأنّ كلّ وجودها يَعْتمد على قدرتها على السيطرة عليه.

الأمل العقلانيّ بالنصر

إذا تأمّلنا تاريخَ محمد علي الحديث، سنجد أنّ ما يحرّكه ليس العواطف الهوجاء، كما يدّعي البعض، بل الأمل العقلانيّ. عبد الناصر مثلاً أعطى الناسَ أملاً بالنصر، وكذلك فعلت الثورةُ الفلسطينيّة في نهاية الستينيّات بعد هزيمة عام ١٩٦٧. العراق أعطاهم أملاً أيضًا قبل بدء حرب الخليج الثانية. وحتى بن لادن أعطاهم أملاً بأنّ الوقوف في وجه الولايات المتحدة ممكن. محمد علي داهية سياسيّ، في الواقع. إنّه يعطي الأملَ لمن يعطيه أملاً، فيَدْعمه. على السطح، قد يبدو محمد علي مشوَّشًا وحائرًا. في تظاهرات عمّان، مثلاً، تراه يحمل صورًا لزعماء لا يُطيقون بعضهم بعضًا، وتسمعه يَهْتف لبن لادن والسيّد حسن نصرالله ولصدّام حسين بالتوالي، ثم لحماس والجهاد وكتائب الأقصى وأبو علي مصطفى، ثم لحزب اللّه بل ولياسر عرفات (فقط عندما وقع تحت الحصار). لكنّ محمد علي **هو** الذي يحاول أن يسيِّر الزعماءَ والأحزابَ. حيثما رأى نقطةَ صِدامٍ جديّةً مع حكومة الولايات المتحدة أو الحركة الصهيونيّة، ولو كانت عابرةً، عَزَّزها ودَعَّمها ويُدعِّمها. إنّه يفكّر إستراتيجيّاً، لا بل بطريقة أكثر انفتاحًا من الكثير من المثقفين والقوى السياسيّة. لكنْ أيّاً كان الوجه الذي دَعَمه، فإنّك تراه يقول الشيءَ نفسه دائمًا لمن يصادم حكومةَ الولاياتِ المتحدة أو الحركة الصهيونيّة: «أنا احتياطُكَ الاستراتيجيّ. استفِدْ منّي. سأغنّي لحنَكَ، من دون شروط، سوى أن تتابع طريقكَ.» ولكنّ ذلك لا يعني أنّ محمد علي لا يَعْرف أنّ صدّام ونصرالله وبن لادن وعرفات (حتى وهو تحت الحصار) عبارةٌ عن محتويات مختلفة تمامًا.

الأمل العقلانيّ يعني أنّ النزول إلى الشارع لن يكون بلا جدوى. المذهل أنّ محمد علي يعود إلى الشارع حتى بعد تحطّم آماله السابقة، خيبةً بعد خيبة. إنه يمتلك الكثيرَ من القوّة في الداخل. عليه أن يعيش وأن يستمرّ، ولكنه لن يَحْجب دعمَه عن أيّ طرف يَصْمد في الميدان أو يصادم حكومةَ الولايات المتحدة والحركة الصهيونيّة، لأنه يعرف غريزيّاً أنّ مصلحته الحقيقيّة تكمن هناك. أما كيف يستفيد هذا الطرفُ من دعم محمد علي له، فهي مشكلةُ ذلك الطرف، لا مشكلة محمد علي.

كم مرةً طلَبَ محمد علي من حزب الله أن يَفْتح له بابَ التطوُّع في صفوفه؟ وكم مرّةً طلَبَ ذلك من العراق في حرب الخليج الثانية، ومن الثورة الفلسطينيّة خلال اجتياح لبنان عام ١٩٨٢؟ وكم مرةً

إبراهيم علّوش

فلسطين وتحرير الشارع العربيّ

ما جرى في الشارع العربيّ دليل على الحاجة إلى التنظيم والقيادة الشعبيّة

أَحْجم محمد علي عن النزول إلى الشارع عندما لم يكن يعتقد أنّ ثمة فائدةً من ذلك، حتى عندما كان الموقف يبدو وكأنه يقتضي النزول، إذا وضعنا حسابَ الربح والخسارة جانبًا؟

بالمقابل، عندما تكون قيادةُ التحرُّك ضعيفةً أو انتهازيّةً، أو عندما تبدأ المفاوضات السريّة والتنسيقُ الأمنيّ، أيْ عندما تقلّ جدّيّةُ الصِّدام مع أعداء الأمة، فإنّ الأمل يقلّ في أن تُثْمر التضحياتُ اللازمة عند النزول إلى الشارع شيئًا ملموسًا ولو على المدى البعيد. لذلك لا تسيطر الأنظمةُ على محمد علي بالقوّة فحسب، بل بنشر الإحباط، أيْ بمصادرة الأمل أيضًا. وتوجِّه الأنظمةُ آلتَها الإعلاميّة وأجهزتَها للعمل ضمن هذا البرنامج.

أما اليوم، فإنّ أحد أهم العوائق أمام تبلور حركة الشارع العربيّ وتطوّرها هو غيابُ أيّ نوع من القيادة الجماهيريّة، أو غيابُ التنسيق بين أجزائها. وعاقبة ذلك هي أنّ غياب التنظيم أو التنسيق عن حركة الشارع يَتْرك كلَّ محمد علي ليواجه جبروت نظامه العربيّ بمفرده. تصبح المواجهةُ بلا جدوى هنا، فيحافظ محمد علي على قواه لمعاركَ ظروفُها أفضل.

تُصْدر هذه الشخصيّةُ المرموقةُ أو تلك المجموعةُ نداءاتٍ لمحمد علي ليفعل هذا أو ذاك، في سياق لا يعنيه. لكنّ محمد علي لا يتحرك بكبسة زرّ. فقد تعلَّم أن لا يثق بالخُطَباء ورموز أحزاب المعارضة «المشروعة.» لكنّ الضغوط تتفاقم أحيانًا، فينزل إلى الشارع بشكل عفويّ تمامًا، ويجد أقرانَه حوله، فيَشْعر بالقوّة، ومن ثمّ بالأمل، فيخاطر بكلّ شيء، ويسير. ترتعد فرائصُ الأنظمة. في البداية تحاول هذه الأنظمة أن تساير الشارعَ كي تحتويَه؛ فإذا فشل ذلك، يبدأ القمعُ العنيف. ولو وُجِدَتْ آليّةٌ تنسيقيّةٌ ما لحركة الشارع هنا بين القيادات الميدانيّة، أيْ لو وُجِدَ شكلٌ من أشكال التنظيم الذي يستطيع أن يَحْصد على الأقلّ بعضَ الإنجازات السياسيّة من التضحيات، فإنّ محمد علي كان سيستمدّ سببًا وجيهًا للأمل، ومن ثمّ للبقاء في الشارع، وللتضحية أكثر. أما في غياب ذلك، فإنه يكون قد أوصل رسالة سياسيّة على الأقل ولو بثمنٍ باهظ. وبدون الأمل العقلانيّ بنتائج ملموسة، تصبح التضحيات بلا جدوى؛ ولذلك يحافظ محمد علي على قواه.

قد يكون من المفيد من جهة أخرى أن نَفْحص الطريقة التي يسيطر بها النظامُ العربيُّ على ما يسمّى «التجمُّعات غير المشروعة» باستخدام أسلوب صِمامات الأمان. فمادام عددُ المتظاهرين صغيرًا، ومادام فضُّ الاحتجاج قد أَمْكَنَ بسهولة نسبيّة، فإنّ النظام يَمْنع هذه الاحتجاجات بشكل كامل، أو يَحْصرها في أماكن مغلقة. عندما يزداد عددُ المتظاهرين ويصبحون أقلَّ هدوءًا، يَسْمح النظامُ على مضضٍ بالاحتجاجات، ولكنّه يحاول أن يوجِّهَها نحو مساربَ آمنةٍ بعيدًا عن نقاط الضغط المؤثِّرة، أيْ بعيدًا عن السفارة الصهيونيّة أو الأمريكيّة مثلاً، ويحاول توجيهَها نحو مجلس النواب (الصُّوَريّ أو المحلول) أو نحو أحدِ مكاتب الأمم المتحدة. وعندما لا يَشْفي هذا غليلَ المتظاهرين إذا ازداد عددُهم وتصاعدتْ وتيرةُ احتجاجهم، يلجأ النظامُ إلى قيادات النقابات والمعارضة «المشروعة» لإحباط التحرُّك الشعبيّ. أما إذا فشل كلُّ هذا، وخرج الناسُ للاحتجاج على هواهم، فإنّ قوات الأمن تهاجم طليعةَ التظاهرة بشكل وحشيّ لإجبارها على التفرُّق، وهي تَعْرف أنّ الناس الذين تجمّعوا بشكل شبه عفويّ لا يَمْلكون آليّةً تنسيقيّةً لإعادة تجميع قواهم. وفي بعض الحالات، يتابع النظام المطاردات بعيدًا، وبشكلٍ انتقاميّ تقريبًا، ويأخذ في طريقه الكثيرَ من عابري السبيل.

وقد يحدث عندما تستقرّ حالةُ الإحباط أن تَنْتشر النزعاتُ القُطْريّة والطائفيّةُ والقَبَليّةُ والانتهازيّةُ والظلاميّةُ وغيرُها، ويحاول النظام أن يستفيد منها كثيرًا لتوطيد أركان سيطرته. ولكنْ لنلاحظْ أيضًا أنّ هذه النزعات تكون في أضعف حالاتها عندما تَشْعر الأمةُ بالقوّة: عند تأميم قناة السويس، أو عند انطلاق الثورة الفلسطينيّة، أو عند تحرير جنوب لبنان، أو عند صمود مخيّم جنين، الخ... وفي المقابل،

عمّان: ملاحظات على هامش الحركة المساندة للانتفاضة ـ محمد علي كياناً سياسياً عقلانياً

نجد هذه النزعات تستشري أكثرَ ما تستشري عندما يَفْقد محمد علي الأمل: بعد هزيمة ١٩٦٧، أو بعد انهيار الاتحاد السوفياتيّ، أو ضرب العراق، أو توقيع أوسلو ووادي عربة. فهذه النزعات تَقْترن في التاريخ العربيّ الحديث بغياب نقطة الضوء، أي النقطةِ المرجعيّة التي تَأْخذ على عاتقها مهمّةَ التصدي لقوى الهيمنة الخارجيّة ومشاريعِها وامتداداتِها الداخليّة، أيْ أنها ترتبط بغياب الأمل العقلانيّ بالنصر.

النهضة تبدأ في العقل، أَمْ في الشارع؟

الخلاصة هي أنّ المشروع النهضويّ العربيّ لا يبدأ من إحداث ثورةٍ ثقافيّةٍ في عقل محمد علي أولاً لتخليصه من رواسب العصور، على ما يَزْعم البعض، بل يبدأ من العمل في الشارع. فهذا العمل هو الذي يُمْكن أن يُنْتج الحركةَ الشعبيّةَ المنظَّمَةَ التي تُسْهم بشكل منهجيّ في صنع الأمل العقلانيّ بالنصر، وتساعد من ثمّ على تحقيق أهداف الأمة ـ ومنها الارتقاءُ «من ظلام العصورْ إلى عالمٍ كلُّ ما فيه نورْ،» على حدّ تعبير الشاعر بدر شاكر السيّاب. فالمشكلة الراهنة ليست في رأس محمد علي، بل فينا، في المثقف والكادر السياسيّ العربيّ، في عدم قدرتنا على العمل معًا لإيجاد أُطُر تنسيقيّة ميدانيّة، وفي عدم إنجاز أداة التغيير التي يُمْكن أن تُقْنع محمد علي فيها. وبدون هذه الأداة، لن تكون هناك ثورةٌ ثقافيّة، بل مشاريعُ لمنظَّماتِ التمويل الأجنبيّ لإلحاق محمد علي بثقافة العولمة.

إنّ ما جرى في الشارع العربيّ خلال انتفاضة الأقصى دليلٌ ساطع على الحاجة إلى التنظيم والتعبئة والرؤيا الإستراتيجيّة والقيادة الشعبيّة، من تحت: أيْ أنّه يُثْبت الحاجةَ إلى حركة شعبيّة عربيّة منظَّمة. فلنلاحظْ أنّ هذا الشارع كان يموج بالتظاهرات والصدامات من المغرب إلى البحرين: ولكنْ لأنّ الحركة الشعبيّة كان يعوزها التنظيمُ والهدفُ الواضح، فإنها لم تستطع أن تحافظ على ديمومتها أكثرَ من بضعة أسابيع ـ في تشرين الأول/أوكتوبر ٢٠٠٠ في المرة الأولى، وفي بدايات الربيع في ٢٠٠٢ في المرة الثانية ـ على عكس الحالات التي وصلتْ فيها الحركةُ الشعبيّةُ إلى النصر، كما في إيران والفليبين وغيرهما، حيث وُجِدَ قَدْرٌ من التنظيم ووضوح الهدف، ومن ثمّ الديمومة. فإذا هاجمتْ حكومةُ الولايات المتحدة العراقَ مجدّدًا كما هو متوقَّع، فقد تتكرر الحركةُ العفويّةُ نفسُها، لنعود بعدَها إلى اجترار الإحباط والنزعات المرافقة له بعد إيصال الرسالة بثمنٍ باهظ، وليعود البعضُ إلى محاولة علاج الأعراض بالحديث عن ثورة ثقافيّة أو الحاجة إلى خلق إنسانٍ مسْلمٍ أو عصريٍّ أو معولَمٍ أولاً!

إنّ الانتفاضة الفلسطينية التي بدأتْ بهبّة عفويّة يوم ٢٠٠٠/٩/٢٨ ما كان يمكن أن تستمرّ كما استمرّت لولا وجودُ قوى منظّمة مثل «حماس» و«الجهاد» وقواعد «تنظيم فتح» و«كتائب الأقصى» و«الشعبيّة» والقيادات الميدانيّة المحليّة التي أبقتْ شعلةَ الانتفاضة متوهّجةً. واليوم، إذا خفتتْ شعلةُ الشارع العربيّ، فإنّ ذلك لن يكون بسبب تقاعس محمد علي أو عبقريّةِ الأنظمة العربيّة، بل بسبب عدم وجود حركة شعبيّة عربيّة بكل ما في هذه الكلمات من معنى. وتبقى المهمةُ السياسيّة المركزيّة في هذه المرحلة الراهنة، وإنْ لمجرّد دعم انتفاضة الشعب الفلسطينيّ، هي مهمة إيجاد آليّةِ تنسيقٍ فعّالةٍ في الشارع العربيّ يُمْكن أن يَعْمل من خلالها محمد علي.

عمّان

إبراهيم علّوش

كاتب فلسطينيّ شابّ. أستاذ الاقتصاد في جامعة البتراء في عمّان. عضو رابطة الكتّاب الأردنيّين.

سورية: الربيع الفلسطينيّ

محمد نجاتي طيّارة

مَنْ يتابع فضاءَ الشارع السوريّ لا بدّ أن يلاحظ المكانةَ المحوريّةَ والطاغية للموضوع الفلسطينيّ فيه. ولا يعود ذلك إلى زخم الوجدان العروبيّ فحسب، كما هو معروف عن سورية، بل أيضًا لكون سورية قد شاركتْ قسمَها الجنوبيَّ فلسطينَ، ثم دولَ ما اصطُلح على تسميته بدول المواجهة، بأقساط متكررة من الخسائر الناجمة عن الاعتداءات الإسرائيلية، فكان لها نصيبُها من لاجئي ١٩٤٨(ما يقارب الـ ٤٠٠ ألف) ونازحي ١٩٦٧ (أكثر من ١٥٠ ألفًا). وما زالت سوريا تتلقّى التهديداتِ والضغوطَ، بل والضرباتِ العسكريّةَ أيضًا، على الأقلّ في خاصرتها اللبنانيّة مؤخّرًا. ومن هنا كان استنزافُ مخصّصاتِ دفاعِها معظمَ ناتجها القوميّ. ولذلك كان الموضوعُ الفلسطينيُّ مفتاحَ الحياة السياسيّة السوريّة بأحزابها ونُخبها، والبندَ الأولَ على جدول أعمال جميع حكوماتها المتعاقبة منذ الاستقلال.

منذ عقود، يمكن القول إنّ هذه المكانة المحوريّة قد تراجعتْ وأصابها ما أصاب الشارعَ العربيَّ من خمود وانكماش. وهذا لا يعود فقط إلى سيادة لغة الواقعيّة والسلام وانتشار النزعة الاستهلاكيّة، التي بدأتْ بعد الانتصارات التحريكيّة لحرب تشرين، بل يعود أيضًا إلى أسباب بنيويّة عميقة تتعلق باستقرار النظام السوريّ وتكوُّن سلطته المركزيّة ذاتِ الطابع الأبويّ، التي انطلقتْ من حالة الطوارئ المكرَّسة إلى إعادة إنتاج الدولة والمجتمع في نظام كلّيٍّ من الأجهزة والمنظمات الشعبيّة المتوَّجة بجبهة وطنيّة تقدُّميّة وحزب قائد. ولم يكن لعبور هذه السلطةِ المركزيّةِ العديدَ من الأزمات الداخليّة (٧٩ ـ ٨٠، ٨٢،...) والخارجيّة (الحرب الأهليّة اللبنانيّة، الضربة الإسرائيليّة في عام ١٩٨٢، المشاركة في حرب الخليج الثانية) إلا فضلُ تمتينِ الطابع العسكريّ وتغليبِ «الدولة الأمنيّة،» على حدّ تعبيرٍ مفضّلٍ للطيّب تيزيني، بحيث هيمن هذا الطابعُ على التعبيرات المستقلة والجنينيّة للمجتمع المدنيّ، وكرَّسَ طويلاً غيابَ الشارع السوريّ الذي كان يغلي بالحركة لسنوات خلت. وكان من بين نتائج ذلك عزلةُ الفرد السوريّ، وانسحابُه الدفاعيّ إلى أصوليّات متعدّدة، عائليّةٍ وطائفيّةٍ وعقائديّةٍ، في ظلّ دورات اقتصاديّة متخبّطة بين اقتصاد السوق واقتصاد الدولة ـ هذه الدولة التي لم تستفدْ براغماتيَّتُها المشهودةُ من التحولات العالميّة وتيّاراتها الجديدة إلاّ بما يَدْعم قدرتَها على الطَّفْو والبقاء.

صحيح أنّه لا يُمْكن شارعًا أو مجتمعًا أن يغيب غيابًا مطلقًا؛ وهذا ما كان يَحْدث فعلاً بين فترة وأخرى في الشارع السوريّ، نزوعًا أو ردّاً انفعاليّاً على أحداث معينة، كانفجار مظاهرة المليون ونصف المليون منذ سنوات في دمشق وتحطيمِها للسفارة الأميركية ردّاً على أحد الاعتداءات الكبرى على العراق، وغيرِها من التعبيرات التي يُمْكن إدراجُ منتديات ربيع سوريّة القصير لعام ٢٠٠١ في إطارها. لكنّ من الصحيح أيضًا القولَ: إنّ ذلك كله كان موقّتًا وعابرًا، ولا يُمْكن إدراجُه في إطار مصطلح «الشارع» كحركة مجتمعيّة مدنيّة أو كتعبير جماهيريّ مستمرّ وموّار «بالحركة والنضال» حسب مصطلحات الستينيّات. وهنا لا يفوتنا القولُ إنّ التعبيرات المنظّمة والمعلّبة للموظّفين والعمّال ولباقي قطاعات الدولة وأجهزتها المختلفة، من مسيرات البيْعة والتأييد إلى مسيرات الاستنكار، هي مسألةٌ لا تتوفّر فيها أدنى علاقة بالمصطلحيْن المذكوريْن.

ما يحدث اليومَ في سوريا شيء مختلف لا يمكن إخضاعُه للتصنيفات التقليديّة. فهناك جديد في الشارع السوريّ، فيه العديدُ من الظواهر العفويّة الجماهيريّة، فضلاً عن العديد من الظواهر المجتمعيّة المدنيّة المنظَّمة. وبين هذا وذاك ثمّة محاولاتٌ ومشاريعُ مفتوحة ومركّبة من المبادرة والعفويّة والتنظيم، وكلُّ ذلك في إطار عودة المكانة المحوريّة للموضوع الفلسطينيّ إلى الشارع السوريّ.

فمنذ الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ تُمكن ملاحظةُ انشغالات مجتمعيّة سوريّة عديدة بدعم الانتفاضة الفلسطينيّة. ومع انفجار الانتفاضة الثانية حفلتْ هذه الانشغالاتُ بأنشطة متنوعة، بدءًا بالمهرجانات التضامنيّة والمحاضرات والندوات، ومرورًا بجمع التبرعات، وانتهاءً بتشكيل «اللجنة الوطنيّة العليا لدعم الانتفاضة،» التي تمَّ تفصيلُها على مثال «الجبهة الوطنيّة التقدُّميّة» مع بعض التجميلات ـ الأمرُ الذي دعا الطيّب تيزيني وآخرين إلى الانسحاب من هيئتها العليا بعد يأسهم من محاولة تطويرها إلى مشروع شعبيّ. لكنْ مع بدء

سورية: الربيع الفلسطينيّ

الهجمة الصهيونيّة الأخيرة على الشعب الفلسطينيّ، انفجرتْ دمشقُ والعديدُ من المحافظات والبلدات السوريّة الطَرَفيّة بما لا يسعنا تسميتُه إلا بـ «ربيع سورية الفلسطينيّ.»

لم يكن ممكنًا تفتُّحُ هذا الربيع بلا بذور أو مناخ. فإذا كان الموضوعُ الفلسطينيُّ حاضرًا دومًا في سوريّة، فإنّ المسألة تتعلّق أيضًا بالمناخ المنفتح ـ إلى هذا الحدّ أو ذاك ـ الذي أتاحته الإصلاحاتُ السوريّةُ البطيئةُ لكن الحثيثةُ، والمعبِّرةُ عن رؤية القيادة الجديدة الشابّة للتطوير والتحديث في ضوء الاستمراريّة. وتتعلّق المسألة أيضًا بتراجع القبضة الأمنيّة من مجال القهر والعسف إلى مجال الحراسة والمراقبة، بحسبِ ما عبَّر ذاتَ مرّةٍ پاتريك سيل. كما غضّت السلطاتُ الطَّرْفَ عن نشاط بعض التعبيرات المدنيّة والسياسيّة للمثقفين والأحزاب المعارضة ـ مثل بيانَيْ الـ٩٩ والألف، ولجانِ إحياء المجتمع المدنيّ، ولجانِ الدفاع عن حقوق الإنسان، وجمعيةِ حقوق الإنسان، ومنتدى الأتاسي، وبياناتِ التجمُّع الوطنيّ الديموقراطيّ وغيره ـ على الرغم من تلويح بعضِ أطراف تلك السلطات بالخطوط الحمر، بل واستعدادِها لتوجيه ضربات تحذيريّة، كما في قيامها باعتقال الديمقراطيِّين العشرة في نهاية صيف ٢٠٠١، وإخضاعِها النائبيْن الإصلاحيَّيْن مأمون الحمصي ورياض سيْف لمحاكمات هزيلة.

بالمحصِّلة، هناك فرضيّةُ ربيع ما آخرَ في سوريّة. ونظرًا للصمت الإعلاميّ حوله، سنحاول ما أمكَنَنا تتبُّعَ مساره ميدانيّاً في ما يلي.

دمشق

في دمشق، بدأت البذرةُ الأولى ببلاغ صدر عن «لجان المجتمع المدنيّ» بتاريخ ٢٠٠١/١/١٦، استَعْرَضَ تجربة الحراك المدنيّ في سوريا، وأهميّةَ الحوار واختلاف الآراء في تفعيلها. وقد انطلقتْ هذه اللجان من رؤيتها لاستقلاليّة الحقل الثقافيّ في إطار جدله مع الحقل السياسيّ، وازديادِ أهميّة الثقافة الوطنيّة المقاومة بعد أحداث ١١ أيلول وانعكاساتها السلبيّة على وطننا العربيّ ـ وهو ما يتجلّى في تصعيد هجمة المشروع الصهيونيّ المدعوم أمريكيّاً ضدّ شعبنا الفلسطينيّ وانتفاضته الباسلة. ولهذا دعت «اللجان» أبناءَ الشعب السوريّ إلى المشاركة في حملات التضامن لنصرة الشعب الفلسطينيّ، أمام مبنى مقرّ الأمم المتحدة شارع أبي رمّانة، الساعة ١١ نهارًا من كل خميس، اعتبارًا من ٢٤ كانون الثاني.

وفعلاً، احتشد في المكان المشار إليه، وبدءًا من ذلك الخميس بالذات، جمهورٌ من نشطاء المجتمع المدنيّ والمثقفين المستقلّين والفنّانين، برز بينهم عبد الرحمن زهرة (أبو القاسم) وفارس الحلو ومي سكاف وأحيانًا خالد تاجا. وكان عدد المتضامنين يتراوح بين ١٥٠ و٣٠٠، من الجنسيْن، ومن أجيال متعددة، وانضمّ إليهم جمهورٌ متزايدٌ من الفلسطينيِّين. ومنذ الخميس الأول، تقدمت المشاركاتُ والمشاركين برسالة احتجاج إلى الأمين العام للأمم المتحدة، سلَّمَها باليد كُلٌّ من المشاركة د. مي الرحبي وكاتب هذه السطور، إلى السيد مسؤول البرنامج الإقليميّ للأمم المتحدة. كما رفع المشاركون رسالةً أخرى مماثلةً إلى الأمين العام للجامعة العربيّة. وأصبح تقديمُ مثل هذه الرسائل تقليدًا مستمراً باسم المشاركين في «الاعتصام.»

بعد أكثر من شهر، ظهر في المكان نفسه تجمّع آخرُ عند الساعة الثالثة، دعت إليه لجانُ العودة وناشطو الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين. وأمكن التنسيقُ بين الموعديْن، فتكاثر جمهورُ المعتصمين وأصبحوا يَشْغلون معظمَ الشارع. وفي خميسٍ لاحق، بادرتْ مجموعةٌ من الشيوعيِّين السوريِّين منشقّةٌ مع قدري جميل القياديِّ السابقِ في الفصيل البكداشيّ، فدعت إلى تحشّد آخر في المكان نفسه عند السادسة مساءً. وتميّزتْ برفع راياتها الحمراء، وبأغلبيّة الجيل الشابّ بينها، وأصبحتْ توقِّع لافتاتها وبياناتها باسم «لجنة متابعة تنفيذ ميثاق الشرف.»

هكذا ظهر خميسُ فلسطين في دمشق، وتحوّل إلى تقليد تضامنيّ تركّز حول الموضوع الفلسطينيّ. وأشارت الأنشطةُ التي رافقته إلى حيويّة متجدِّدة في النُّخب السورية، التي كان لجوؤها إلى مقرّ الأمم المتحدة تعبيرًا شديدَ الرمزيّة عن حاجتها إلى ظَهْرٍ يُسْند توقَها إلى التعبير، فضلاً عن رغبتها في كسر الصمت الإعلاميّ عن وجود الآخر ورأيه. ومن ثمّ كان من الطبيعيّ ظهورُ لافتات تحمل تواقيعَ «لجنة أُسَرِ معتقلي الرأي» و«جمعيّة حقوق الإنسان» و«التجمُّع الوطنيّ الديمقراطيّ،» طالبتْ بإطلاق سراح المعتقلين السياسيِّين،

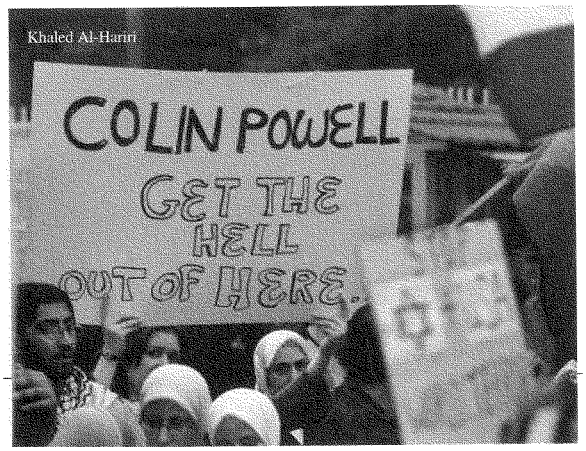

نما في الشارع الدمشقيّ مجدّدًا كره سياسة أميركا: «باول، حلّ من هنا!»

وربطتْ جميعُها بين التحرير والحريّة، وتوجّهتْ إلى المطالبة بالحريّات الديمقراطيّة سبيلاً لتعزيز الوحدة الوطنيّة ضدّ الأعداء الخارجيّين.

ولم تتوجّه رسائلُ المشاركين في الاعتصام إلى الهيئات العربيّة والدوليّة فحسب، بل تحولتْ كذلك إلى نداءاتٍ موجّهةٍ إلى الرأي العامّ والمواطنين العرب. فتَحْتَ عنوان: «لمن ندّخر الجيوش؟ إلى متى نَصْمت ونتفرّج؟» دعت في ٣/١٤ إلى تأييد النضال الوطنيّ الفلسطينيّ، وطالبت الحكوماتِ العربيّةَ بمواقف تتّفق وجسامةَ الهجوم الإسرائيليّ الحاليّ على فلسطين، وهولَ الهجوم الأميركيّ الوشيك على العراق. ولم يَفُتْها أن توجّه في اليوم نفسه رسالةً إلى الأمين العام للأمم المتحدة، منوّهةً بتصريحه الشجاع والمُنْصف قبل يومين.

ثم حدثت النقلةُ النوعيّة في الاعتصام، وذلك حين دعت «لجان المجتمع المدنيّ» إلى التحشُّد أولَ يومَي انعقاد مؤتمر القمة في بيروت. فقد تحوّل الاعتصام إلى مظاهرة من عدة آلاف، اخترقتْ شوارعَ العاصمة، وصولاً إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، حيث ألقى الفنّان فارس الحلو كلمةً مرتجلة، كما ألقى الفنّان أبو القاسم بيانًا باسم «اللجان.»

ومع انفجار الأحداث عشيّةَ انتهاء مؤتمر القمة العربيّة، تشكلتْ ميدانيّاً «لجنة تنسيق المظاهرات اليوميّة لدعم الانتفاضة الفلسطينيّة.» فبدأ عملُها في ٤/٢٩ وضمّت: معاذ حمور عن لجان المجتمع المدنيّ، وسوسن زكزك عن اتحاد الشباب الديمقراطيّ ورابطة النساء الديمقراطيات ـ الجناح الفيصليّ، ومعتز سويد عن الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ، وعلاء عرفات عن لجنة المتابعة، وممثّلين عن كل من «التجمُّع» ولجنتَيْ «عائدون» و«الأرض.» فدعت هذه اللجنة، في بيانات متكررة تحمل توقيعَها، إلى التظاهر والاعتصام عند الساعة السابعة يوميّاً، احتجاجًا على ما يجري، والقيام بمجموعة من الضغوط لدعم الانتفاضة وللاستعداد للمواجهة المفتوحة.

واعتبارًا من اليوم التالي أصبح الاعتصام ظاهرةً مسائيّةً يوميّةً، تحولتْ مرارًا إلى مظاهرة جماهيريّة، مختلفةِ الألوان والاتجاهات السياسية المعارضةِ أو المنشقّة أو المتململة عن الجسد السياسيّ الرسميّ السوريّ، على نحوٍ ما دلّت اللافتاتُ والأعلامُ المرفوعة. أما الهتافات فكان من الطبيعيّ أن تذهب بعيدًا في الخطاب التعبويّ، إذ عبّر بعضُها عن اليأس من الأنظمة العربية وعجزها إلى درجة الشتيمة: «يا ناس والله يا ناس، حكّام العرب أنجاس.» واستنجدتْ أخرى بأبطالنا التاريخيّين: «وين جمال وصلاح الدين، تا نحرّر فلسطين.» كما كانت هناك هتافاتٌ طالبتْ بفتح المعتقَلات وإطلاق الحريات: «لا تحرير بلا حرية»؛ «سامحينا يا فلسطين لأنّنا مكبّلين»؛ «الحريّة الحريّة للمتوارين والمعتقلين.» فضلاً عن الشعارات الغالبة لفلسطين وتأكيد خيار «ما أُخِذَ بالقوّة لا يُستردُّ بغير القوّة.» ورافقتْ ذلك كلَّه ممارساتٌ رمزيّةٌ أخرى كإحراق العلميْن الصهيونيّ والأمريكيّ.

منذ اليوم الأول، الذي صادف يومَ الأرض، حاول بعضُ المحتجين التوجُّه إلى السفارة الأميركيّة، فمنعتْهم قواتُ حفظ النظام، فأدّى ذلك إلى جرح بعض المتظاهرين واعتقالِ بعضهم الآخر ساعاتٍ محدودةً. لكنّ تلك القوات لم تذهبْ أبعدَ من ذلك، في حين اكتفت قواتُ الشرطة وعناصرُ أجهزة الأمن المختلفة بمراقبة المعتصمين، وعملتْ على قطع الشارع وحماية الممتلكات، بل تقدمتْ سياراتها المتظاهرين وأمّنتْ لهم المرورَ. وحين تمادى بعضُ المشاركين، سواء بشغبهم ضد رجال الشرطة والممتلكات العامّة، أو بإخراج التظاهرة عن أهدافها الأساسيّة، سارعتْ لجنةُ التنسيق المذكورة إلى التدخُّل والتهدئة. كما وزّعتْ «لجانُ المجتمع المدنيّ» بيانًا خاصّاً بتاريخ ٤/٥ دعت فيه المتظاهرين إلى التمسك بالأهداف الأساسيّة للتظاهرات، والحفاظِ على طابعها السِّلْميّ الذي يتنافى مع «أيّ قصد استفزازيّ ضدّ رجال الشرطة والأمن السوريّين، الذين يسمحون لنا بالتظاهر بحريّة في شوارع دمشق.» كما دعت إلى أن تعبّر هذه التظاهراتُ عن رغبات الشعب السوريّ المشتركة، وأن لا يستغلّها أيُّ طرف لأغراضه الخاصة. وأكدّت أنّها «لا تستهدف أيَّ مَرافقَ أو مؤسساتٍ عامّةٍ أو خاصّةٍ، أو هذه السفارة أو تلك، بل بناءَ موقفٍ عربيٍّ معادٍ لأميركا وسياساتها.»

وفعلاً، استقرّ الطابعُ السلميُّ للاعتصام، وأخذ أشكالاً متنوّعة من التعبير الرمزيّ، كما في حَمْلِ ما يُشْبه معرضًا لصور المأساة الفلسطينيّة، أو في كمِّ أفواهِ مجموعةٍ كبيرةٍ من الشبّان والشابات مع تقييد الأيادي بالسلاسل. وسارت التظاهراتُ باتجاه قبر صلاح الدين مرات عدّة، وباتجاه ساحة الشهبندر ومقبرة الشهداء

سورية: الربيع الفلسطيني

مرات أخرى، حيث ألقيت كلمات للدكتور سمير التقي مرةً، وللمحامي حسن عبد العظيم الناطق باسم «التجمُّع» مرارًا. وقد تميّزت كلمة الأخير مساء ٤/٢٥ بتثمينه إيجابيّةَ القيادة السوريّة من التظاهرات، ومطالبتِه بترسيخ الوحدة الوطنيّة من خلال الإفراج عن كافة معتقلي الرأي ليشاركوا في الدفاع عن فلسطين.

كما تجمّع حوالى ثلاثة آلاف معتصم، ظهيرةَ ذكرى الجلاء في ساحة التحرير، وساروا حتى الكنيسة المريميّة، متضامنين مع شعب فلسطين ومع المحاصَرين في كنيسة المهد بشكل خاصّ. وكان لافتًا حضورُ البطريرك أغناطيوس الرابع هزيم راعي الكنيسة الأورثوذوكسيّة، وإلقاؤه كلمةً جامعةً ندّد فيها بالاعتداء على مهد المسيح وكنيستِه وشعبِه، مستصرِخًا ضمائرَ المسيحيِّين وأبناءَ جميع الديانات السماوية لإنقاذهم وحمايتهم.

لكنّ الاعتصام والتظاهرات المذكورة، على أهميتها، لا تَختْصر حركة الشارع الدمشقيّ، الذي نما فيه كرهُ أميركا مجدّدًا، كما حدث مع طرد القنصل الأميركيّ من مطعم، وإعلان مطعم آخر أنّ الدخول إليه غير مسموح للأميركيِّين. فهناك في كل مكان حركةٌ أو مبادرةٌ متجدِّدة. وربّما كان أبرزَ تلك الحركات أو المبادرات ما حدث في المعهديْن العالييْن للفنون المسرحيّة والموسيقيّة، حيث انطلقتْ حركةُ اعتصام عفويّة بين الطلاب منذ صباح ٤/٦، فافترشوا الرصيف وجعلوا منه، ومن سُور معهديْهم، معرضًا متنوعًا لتعبيراتهم الفوريّة: من المجسَّمات الجصيّة الضخمة والملوَّنة التي تمثِّل الشهيدَ وطفلَ الحجر والمقاومَ؛ إلى رسوم الكاريكاتُور المندِّدة بالصهيونيّة وبالحكومات العربيّة وجيوشِها وعجزها، وبينها رسومٌ لناجي العلي وعمر سواح وحميد قاروط : فمقاطعَ من قصائد لمحمود درويش ونزيه أبو عَفَش بالعربيّة والفرنسيّة. ولم يكتفِ المعتصمون بذلك، بل شكّلوا لجنةً لجمع التبرُّعات، لها طاولتُها الخاصّةُ المعلنة على جانب الرصيف، حيث جَمَعَتْ حوالى مليونيْ ليرة سوريّة حتى مساء ٤/٢٩.

وإذا كان حصرُ جميع المبادرات الدمشقيّة وعرضُها مستحيلاً، فلا بدَّ من الإشارة إلى مبادرة نسائيّة خاصة، إذ شكّلتْ مجموعةٌ كبيرةٌ من السيّدات المستقلات والناشطات في الحقل العام لجنةً ضمّت كلاً من: المخرجة نائلة الأطرش، والكاتبة والطبيبة مي الرحبي، والأستاذة سوسن رسلان، والناشرة ندى العلي. وقد قامت هذه اللّجنة بتسليم رسالة باليد إلى جميع السفارات الأجنبيّة ومكاتب المنظّمات الدوليّة في دمشق، عبّرتْ فيها عن موقف الشعب السوريّ من العدوان. وكان بارزًا توجُّهُ المجموعة إلى السفارة الأمريكيّة، فمُنِعتْ من الوصول إليها؛ وعندما سُمح لمندوبتيْن عنها بذلك لم يَخْرج لمقابلتهما سوى السكرتير الأول، فعبّرتا له المندوبتان عن غضب نساء سوريا من الموقف الأميركيّ، وسلّمتاه رسالةَ احتجاج شديدةَ اللهجة إلى الرئيس بوش. أما ذروة أعمال هذه اللجنة، فكانت إقامتَها لعشاء ومزاد خيريّ، على عشرين لوحة تبرّع بها فنّانو دمشق لدعم الانتفاضة، وذلك في فندق الميريديان مساء يوم ٤/٢٠.

حلب

في حلب كانت قد ظهرتْ، قبل أكثر من عام، «لجنةُ العمل الوطنيّ لنصرة فلسطين،» وضمّت ممثلين عن أحزاب «التجمُّع» و«اللجان» ومثقفين وشخصيّات مستقلّة سوريّة وفلسطينيّة. فأصدرتْ بياناتٍ متتابعةً، وعملتْ على تنظيم واحدة من أوائل المظاهرات المستقلّة لدعم الانتفاضة. ومنذ انفجار الأحداث الأخيرة، شاركتْ في تنظيم تظاهرات مسائيّة، ضمَّت أكثرَ من ألف مشارك ومشاركةٍ، وكانت تنطلق مساء كل اثنين من ساحة سعد الله الجابري لتجوب شوارعَ حلب الرئيسة مندِّدةً بالعدوان وبالعجز العربيّ.

حمص

في حمص، بدأ مساء السبت ٤/٦ اعتصامٌ مستقلٌّ دعا إليه ناشطو «التجمُّع» و«اللجان،» مع بعض المثقفين المستقلّين والفنّانين ـ وبخاصّةٍ شبابُ مجموعة «مدى» الفنيّة ـ إضافةً إلى مشاركة فلسطينيّة رمزيّة. ثم تحوّل هذا الاعتصام بعد أيام إلى احتجاج جماهيريّ يوميّ في مركز المدينة بمشاركة معلنة من «التجمُّع» و«لجنة المتابعة» والمنظّمات الفلسطينيّة، وتراوح عدد المشاركين فيه بين ٢٠٠ و٦٠٠. وسرعان ما أصبحتْ لهذا الاعتصام تقاليدُه الاحتفاليّةُ الوطنيّة، حيث برزتْ هتافات مثل: «داوْنْ داوْنْ يو أَسْ إي، شوفوا العرب يَعْملوا إيه»؛ «دَمّنا

محمد نجاتي طيّارة

فلسطين وتحرير الشارع العربيّ

النساء في سوريا: مشاركة نوعيّة متميّزة تستعيد دورهنّ الوطنيّ والقوميّ

برقبة أمريكا، والپاولْ راكضين عليه»: «يا عَسّاسْ ويا بَصّاصْ، العدوّ بدّو رصاصْ ونحنا بَدْنا حريّه»: «شعب مكتّف ما بيقاتل، الشعب الحرّ وحده مقاتل»؛ «يا حكّام ليش ليش، بيضلّوا نايم هالجيشْ»؛ «يا فلسطينْ ثُوري ثُوري، نحنا معاك الشعب السوري»... مع مشاركة إيقاعيّة من المحتشدين في حلقةٍ متّسعةٍ باستمرار حول الأناشيد الوطنيّة القديمة وأغنيات مجموعة «مدى.» وقد يَتْبع ذلك إحراقُ العلم الصهيونيّ. ولا يُختتم الاعتصامُ إلاّ مع إنشاد النشيد الوطنيّ، ثم ينصرف متحوّلاً إلى مظاهرة سارت يومًا إلى المخيّم، ويومًا إلى مقابل الروضة، حيث قدمتْ مجموعة المدى برنامجًا غنائيّاً خاصّاً.

أما يومُ الخميس الأول، فقد أضاف إليه لونًا متميّزًا حضورُ المفكّر العربيّ الطيّب تيزيني ابنُ المدينة، حيث قام بالمشاركة في جميع الأنشطة، ثم ألقى كلمةً مرتجلةً لاهبةً دارت حول فضل هذه المعركة في تحرير الإنسان العربيّ، واستعادةِ الشارع العربيّ لدوره ونضاليّته، الأمرُ الذي أَرْعب العدوّ والأنظمةَ معًا.

في اليوم التالي، اعتصم بعضُ المشاركين في باحة كنيسة أم الزنار، وقدّموا الشموع إلى الجمهور الخارجين من الصلاة، يدعونهم إلى المشاركة في الاحتجاج على ما يَحْصل في كنيسة المهد وفي فلسطين. فكان منظراً مهيبًا موكبُهم الذي تقدّمه ثلاثةٌ من الرهبان، بينهم الأب الزهر راعي الكنيسة ود. تيزيني والكاتب، حاملين الشموعَ، وهم يُنْشدون الأغانيَ الوطنيّةَ، عابرين الأحياءَ القديمةَ وصولاً إلى مكان الاعتصام، حيث ألقى اثنان من الرهبان كلمات مرتجلةً.

ثم تقدم الاعتصامُ خطواتٍ جديدةً لاحقًا. فبمبادرة من أحد منظّميه، تمّ علنًا، وبصورة فوريّة، تشكيلُ لجنةٍ لجمع التبرّعات لدعم الانتفاضة، ضمّت خمسةَ مواطنين من مختلف الأجيال ومن الجنسيْن، على أن تبدأ عملَها في صباح اليوم التالي بالتعاون مع الهلال الأحمر.

من جهة أخرى، خرجت ذلك النهار أيضًا مسيرةُ احتجاجٍ نسائيّة خاصة، قامت بها مشاركاتٌ من مختلف مؤسسات المجتمع المدنيّ العريقة في حمص (الهلال الأحمر، رعاية الطفولة والأمومة، الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة، السيدات الإنجيليّات، جمعيّة الرجاء، الاتحاد النسائيّ) وجابت شوارعَ مركز المدينة حاملةً لافتاتٍ فرديّةً تتضامن مع الانتفاضة وتندّد بالعدوان. وقد صرّحتْ إحدى المشاركات بأنّ هذه المسيرة المستقلة تحدث للمرة الأولى في مدينة حمص، وهي تعبّر عن مشاركة نوعيّة متميّزة لما يسمّى بسيّدات المجتمع المخمليّ، اللواتي تخلّيْن مع جماهير النساء الأخريات عن التحفُّظ النسائيّ التقليديّ، فنزلن إلى الشارع، مستعيداتٍ دورَهنّ الوطنيّ والقوميّ، وذلك بفضل الانتفاضة وتضحيات شعبنا في الأرض المحتلة.

حماه

في حماه، شهدت المدينة اعتبارًا من يوم الخميس ٢٠٠٢/٤/١١ تعبيراتِ احتجاجٍ متنوعةً ومستقلةً في السياق ذاته. فقد تجمعتْ حوالى ثلاثمئة من نخبة نساء المدينة عند الظهيرة، بينهنّ طبيباتٌ (مثل د. فداء أكرم الحوراني ود. سوسن عدي) ومهندساتٌ (مثل السيدة رندة المرعي) ومدرِّساتٌ (مثل المربّية المعروفة نجوى عوّاد) وسيِّداتُ أعمال (مثل السيدة نجود اليوسف) وربّاتُ بيوتٍ وراهبةٌ، قرب النّصب التذكاريّ في مدخل المدينة الجنوبيّة. وسارت المشاركاتُ باتجاه مركز المدينة، وهنّ يُنْشدن الأناشيدَ الوطنيّةَ والفلسطينيّةَ ويحملن لافتاتٍ فرديّة تندد بالعدوان الصهيونيّ الهمجيّ المدعوم أمريكيّاً، حيث برزتْ شعارات: «من حماه لجنين، شعب صامد لا يلين»: «أم النواعير تنادي: فلسطين يا عزّ بلادي.» وكانت المسيرة مفاجئة في جو المدينة، إذ ضمّت سيداتٍ سافراتٍ إلى جانب المحجّبات، وخرجتْ بصورة مستقلّة عن أيّ تدخُّلٍ رسميّ ـ وهما أمران غير معتادين محليّاً. كما أضافت هذه المظاهرة ميزةً أخرى إلى طابعها السلميّ والوطنيّ: فبعد توقفها أمام السرايا للترحّم على أرواح شهداء الانتفاضة بقراءة الفاتحة «وأبانا الذي في السموات،» عَبَرَتْ إلى حيّ المدينة ذي الطابع المسيحيّ، حيث لقيت تعاطفًا وتحشدًا كبيريْن. كما انضمت إليها جمهرةٌ جديدةٌ من المحتجّات، فربا عددُها على الأربعمئة مشاركة. وتابعتْ بعدَها إلى المخيم، قبل أن تتفرق وتتواعد على متابعة الاحتجاج الجماهيريّ والتنقل به بين أحياء المدينة. وهذا ما تم تنفيذُه في الاثنين التالي، الذي تميّز بحمل الشموع مساءً وبتزايد عدد المشاركات إلى ما يقارب الخمسمئة.

سورية: الربيع الفلسطيني

وبعد مظاهرة صغيرة العدد سارت صامتةً مساء السبت ٤/١٣ من حيّ المحطة إلى وسط المدينة، ودعا إليها ناشطو «التجمُّع» و«لجنة المتابعة،» خرجتْ حماه من صمتها وعزلتها بعد ظهر يوم الجمعة ١٩ /٤، حيث سارت مظاهرةُ احتجاج فلسطينيّةٌ من أمام مسجد المخيَّم، ضمت المئاتِ من الجنسيْن ومن أجيال متعددة ثم عَبَرتْ إلى مركز المدينة، قبل أن تنطلق إلى حيّ الحاضر وطريق حلب، فتزايَدَ عددُ المشاركين فيها وأصبح ما بين ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠. وقد حملتْ هذه التظاهرة مجسَّم الجامع الأقصى مع الأعلام السوريّة والفلسطينيّة، وبرز في مقدمتها المناضلُ الفلسطينيُّ المخضرم محمد سعيد طروية، وممثلو «التجمُّع» الذي رفع لافتاتٍ عديدةً حملتْ واحدةٌ منها توقيعَه، وكان منها: «لا للصمت العربيّ»؛ «أطردوا سفراءَهم من بلادنا.» أما الهتافات فقد حيّا بعضُها كلمةَ الرئيس بشّار في مؤتمر القمة، وبعضُها الآخر حيّا الفدائيّين ونادى: «ياحكّام يا ظلاّم/ الشعب العربيّ مابينام.»

مصياف

في مصياف أيضًا، خرجتْ مظاهرةٌ مستقلّة لنصرة فلسطين بعد ظهر ٤/١٤، ضمت بدايةً حوالى ١٥٠٠ مشارك ومشاركة، وسارت رافعةً أعلامَ فلسطين عبر الشوارع الرئيسة حتى الباب القبليّ والسوق، ليربو عددُها على الثلاثة آلاف وقد برز فيها ناشطو «التجمُّع» ومثقفون مستقلون وممثِّلو الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ ـ فصيل عبد المسيح. وتميّزتْ بشعارات وهتافات كان بينها: «هبّي يا رياح الأوطان/ شيعي وسني/مسلم ومسيحي/ بعثي وقومي/ ناصريّ وشيوعيّ » وتبع تلك التظاهرة اعتصامٌ نسائيٌّ خاصٌّ ومستقلّ مساءَ ٤/٢٣، ضم حوالى ٥٠٠ مشاركة من مختلف الأجيال، وتحوّلَ إلى مظاهرة سارت منددّة بالعدوان وبالعجز العربيّ.

سلميّة

كذلك في سلميّة، كانت قوى الطيف الديمقراطيّ الملتفّ حول «التجمُّع» قد شكلتْ لجنةً لدعم الانتفاضة وتحت ثقل الأحداث دعت للتظاهر نهارَ ٤/٢، فتجمَّع حوالى ١٢٠٠ مشارك ومشاركة من مختلف الأجيال، حَمَلوا هيكلاً رمزيّاً للقدس كُتب عليه: «القدس عروسُ عروبتكم.» وساروا عبر الشوارع الرئيسة ليتجاوز عددُهم الـ ٢٠٠٠. أما هتافاتاتهم فقد برز بينها «لا سلام ولا تطبيع»؛ «يا شارون اسمعْ اسمعْ/ الشعب العربي ما بيركَعْ » ولوحظ في هذه التظاهرة مشاركةُ ممثلي الحزب الشيوعيّ الفيصليّ، والعديد من الشخصيّات المستقلة، إضافةً إلى عدد كبير من المعتقلين السابقين الذين تَزْخر بهم سلميّة.

دير الزور

في دير الزور، كانت أنشطةٌ أهليّةٌ مستقلّة ومتعددة قد تمّت خلال العام الفائت لدعم الانتفاضة، أبرزُها جمعُ تبرعات قُدّرتْ بسبعة ملايين ليرة سوريّة، وذلك قبل أن تَظْهر اللجان الرسميّة ومؤخّرًا خرجتْ بعد ظهر ٤/٢٢ مسيرةٌ مستقلّةٌ وصامتة، ضمت ما يربو على خمس مئة مشاركة ومشارك من عدة أجيال في مقدمة المظاهرة، حمل اثنا عشر شاباً علمًا كبيرًا لفلسطين، وارتفع صوتُ أغانٍ مسجّلة عن الانتفاضة وفلسطين. كما برزتْ لافتات: «النصر للانتفاضة والخزي لأمريكا والصهيونية»؛ و«رفعُ الحصار عن العراق ودعمُ الانتفاضة مطلبان شعبيّان عربيّان » ولوحظت مرافقةُ عناصر أمن الدولة لها، وحرصُهم على تأمين مرورها في الشارع العامّ وانتهاءً بتكية الراوي

الرقّة

في الرقة، خرج المحامي عبد الله خليل والطبيب محمد الحاج صالح وقد ألصقا فميْهما، ورفعا لافتاتٍ تنعَى العجزَ العربيَّ. ثم سارا مع بعض الشبّان في تظاهرة صغيرة عَبَرَت الأسواقَ الشعبيّةَ، فانضمّ إليها عشراتُ المواطنين، وأدت إلى فتح حوار جادّ وإيجابيّ بين المذكوريْن وأمينِ فرع حزب البعث وقد تبع ذلك لقاءٌ واسعٌ مماثلٌ مع مثقفي المحافظة، شَاركتْ فيه قيادةُ الفرع ومحافظ الرقّة.

ثم تتالت أنشطةٌ أخرى، كان من بينها إقامةُ معرض رصيفٍ لعشرة من فنّاني الرقّة في الشارع الرئيسيّ، وبجوار المركز الثقافيّ. أما أبرزها فكان قيام مظاهرة مستقلة لدعم الانتفاضة يوم ٤/١٠، ضمت ممثِّلي الطيف الديمقراطيّ المعارض، وشارك فيها حوالى ألفيْ متظاهر

فلسطين أخرجت السافرات والمحجّبات في تظاهرة واحدة

ومتظاهرة. إضافةً إلى ذلك، كان لافتًا خروجُ تظاهرة صغيرة مساء ٤/٢٢، تميّزتْ بكون أغلبيتها من الأطفال دون العاشرة، وبحملهم رموزًا للإنجيل والمصحف مع خارطة كبيرة لفلسطين.

استنتاجات أوّلية

١ ـ قد تبدو التعبيراتُ التي سبق عرضُها محدودةً ورمزيّةَ التأثير، ولاسيّما أنّ حجم أكبر تظاهراتها في دمشق لم يتجاوز عدةَ آلاف، في حين أنها عاصمةٌ يقطنها أكثرُ من أربعة ملايين نسمة. لكنّ العارف بالشارع السوريّ وما انتابه خلال العقود الماضية لا بدّ أن يُقرّ بأهميّة تلك التعبيرات. كما تكفي مفارقةُ أنّ المسيرات المعلّبة، التي تجاوزت المليونَ أحيانًا، كانت تبدأ ضخمةً وتصبح هزيلةً أثناء سيرها، بينما التظاهراتُ المشارُ إليها أعلاه كانت تبدأ صغيرةً ثم تتنامى أثناء مسيرتها، بانضمام المتعاطفين معها، ومَنْ يكتشفون استقلاليتَها بعدَ كثيرٍ من الحذر والتشكيك.

٢ ـ إنّ التعبيرات المشار إليها أعادت إلى الشارع السوريّ شيئًا من حيويّة الستينيّات وذاكرتها الحماسيّة، بخلاف الإيقاع الرتيب للمسيرات الأبويّة خلال العقود الماضية. وانضافت إلى ذلك، بالطبع، تجديداتٌ فَرَضَها إيقاعُ العصر وتطوراتُه. فكنتَ ترى ممثّلي الأحزاب والتيّارات متوافقين ومتجادلين، وبخاصةٍ في الاعتصام اليوميّ الجاري في دمشق وإلى حدٍّ ما في حمص. وكنتَ ترى أيضًا الأصدقاءَ والعائلاتِ، بل والأجيالَ المختلفة، في تصالحٍ مخالفٍ للمألوف، ربما لأنّ الجميع في خروجهم الحرّ والمستقلّ إلى الشارع تمرّدوا على الأبويّة السياسيّة السائدة والمستقرة منذ عقود، فأصبحوا موحَّدين من جديد في موقع الـ«الأبناء الشياطين.»(١)

٣ ـ تأثير التقنيّات الجديدة. وقد تجلّى ذلك في الإصدار المتلاحق للبيانات والشعارات نظرًا لانتشار الكومبيوتر والطابعات، وكذلك تأثير الفضائيّات ومواقع الانترنت والهاتف الخلويّ، إضافةً إلى الاستخدام الكثيف لكاميرات التصوير والفيديو الشخصيّة، التي حاولتْ أن تعوِّض عن صمت الإعلام المحليّ والخارجيّ.

٤ ـ بروز أهميّة التنظيم والتنسيق بين التيّارات والرموز الناشطة. وهو أمر تمّ بصورة ناضجة وواضحة في بعض المواقع، ولكنْ حدثتْ درجات عفويّة وميدانيّة منه في مواقع أخرى.

٥ ـ طَرحت التجربةُ العمليّةُ لهذه التعبيرات العديد من الأسئلة النظريّة والعمليّة. كما أعادت اختبارَ القديم من هذه الأسئلة، سواء حول العلاقة بين القوميّ والقُطْريّ، وبين التحرر والحريّة، أو حول التراضي الميدانيّ بين القوى المختلفة.

٦ ـ لا شكّ أنّه كان للموقف الإيجابيّ والمنفتح للقيادة السياسيّة السوريّة من هذه التعبيرات أثرُه في ظهورها السلميّ والتوافقيّ. وهذا ما يعطي الأملَ في تطوير الحوار الوطنيّ، انطلاقًا من رؤيةٍ تفيد أنّ سوريا دولةُ كلّ مواطنيها، علمًا أنّ الحزب الحاكم توجّه بدوره مؤخرًا إلى التعبير عن دعمه للانتفاضة بالإضافة إلى تعبيراته الرسميّة المعروفة. لكنْ يبدو أنّ هذا التوجُّه يفسَّر في التعبير عن نفسه بالاشتراك مع الآخرين والمباراة معهم في بعض المحافظات (كالرقّة)، وبممارسة أشكال متنوعة من التحدي والاستفزاز والإلغاء في محافظات أخرى (كحمص).

٧ ـ أخيرًا، إذا كانت الانتفاضة قد أسهمتْ في تحرير الشارع والإنسان العربيّ، فإنّه يبدو أنّ الربيعَ المتفتح مجدّدًا في سورية، والمتوافقَ وطنيّاً ومناخيّاً هذه المرة، لا يمكن إلاّ أن يندرج في هذا الإطار، على الرغم من كثرة الحواجز المتوقعة.

حمص

محمد نجاتي طيارة

باحث سوريّ. أعد كتاب **صورة رائد نهضويّ**، وشارك في كتابَيْ **الأحزاب والحركات القوميّة في الوطن العربيّ**، و**الديمقراطيّة وحقوق الإنسان في سوريا**. وهو عضو مؤسِّس في لجان إحياء المجتمع المدنيّ، وجمعية حقوق الإنسان، ومنتدى حمص للحوار.

١ ـ د. ياسين حاج صالح، «خروج من العزلة ـ يوم فلسطينيّ في دمشق،» **السفير** ٢٠٠٢/٤/٦.

المغرب (١): حوار مع خالد السفياني حول فلسطين والشارع المغربيّ

أجراه: عبد الحق لبيض، مراسل الآداب في المغرب

خالد السفياني

كيف تحدِّدون ظاهرةَ الاحتجاج العربيّ، اجتماعيّاً وسياسيّاً ونفسيّاً؟ وكيف يمكننا أن نتحدث اليوم عن مفهومٍ ما للشارع العربيّ، كما هو قائم في الغرب؟

تشكّل التظاهرة الشعبيّة مجالاً لإبلاغ وجهات النظر، ولإيصال رسائل تُدافع عن قضيّةٍ ما أو موقفٍ معيّن. وهي أيضًا مظهرٌ من مظاهر التواصل مع بقيّة الشعوب، ومع مختلف الأنظمة. في الدول الديمقراطيّة يكون التظاهرُ في العادة مسألةً عاديّةً، ولا يَحْدث من جرّائه أيُّ مشاكل. وذلك راجعٌ إلى نوع التربية التي يتمتع بها مواطنو هذه البلدان، وإلى مجال الحريّة المُعطى لهم من لدن السلطات؛ فهذه يَقْتصر دورُها في التظاهرات على التوجيه والتأطير، ولا تتدخّل إلاّ في الحالات التي يُمسّ فيها النظامُ العامُّ ـ بالشكل الحقيقيّ لا بالمعنى الذي يُعطى في الدول غير الديمقراطيّة. وأمّا ظاهرة نزول المواطنين العرب إلى الشارع للتعبير عن قضاياهم فهي ظاهرةٌ جديدةٌ ولم تنضجْ بعدُ لتصير سلوكًا اعتياديّاً في الممارسة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة. إنّ الشارع العربيّ لم يتحوّل بعدُ إلى فعلٍ مؤسِّسٍ في معظم البلاد العربيّة، وتعترضه معوّقاتٌ بنيويّةٌ أساسيّةٌ تتجلّى أهمُّ مظاهرها في عدم اكتمال بناء المجتمع المدنيّ في بعض البلدان العربيّة، وفي غياب هذا المجتمع في بلدان أخرى، إضافةً إلى ما يواجهه المجتمعُ العربيُّ من سلوكاتٍ لاديمقراطيّة من طرف الأنظمة الشموليّة.

إنّ موجات الاحتجاج التي عرفها العالمُ العربيّ في الشهور الأخيرة إنّما فرضتْها التطوراتُ المأساويّةُ التي يتعرّض لها الشعبُ الفلسطينيُّ. وكلما كَبرت القضيةُ، كبرتْ معها الحاجةُ إلى التظاهر، ومن ثم كبر حجمُ التظاهر ذاته. ففي المغرب مثلاً، عندما وصل الإجرامُ الصهيونيُّ ـ الأميركيّ إلى ما وصل إليه، كان من الطبيعيّ أن يخرج أكثرُ من ثلاثة مليون مواطن إلى شوارع الرباط للتعبير عن موقف ثلاثين مليون مغربيٍّ متعلّقٍ بقضيّة فلسطين ومنشغلٍ بها. والملايين التي طافت شوارع الرباط كانت تحمل رسائل محددة:

أولاً: رسالة إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة يندِّد فيها المتظاهرون بتواطئها المفضوح في حرب الإبادة التي يتعرَّض لها الشعبُ الفلسطينيُّ، ويطالبون باتِّخاذ مواقف صارمة ضدّها (مثل مقاطعة البضائع الأمريكيّة).

ثانيًا: رسالة إلى الرأي العام الدوليّ لحثّه على التحرك والضغط بكل الوسائل من أجل إيقاف المذابح.

ثالثًا: رسالة إلى الحكّام العرب، الذين أحسَّت الجماهيرُ أنّهم لم يقوموا بواجبهم تجاه ما يجري في فلسطين.

رابعًا: رسالة إلى الشعب الفلسطينيّ، وذلك حين أراد المغاربة أن يقولوا له إنّه ليس وحده في ساحة المعركة.

خامسًا: إحساس المغاربة أنّ مَنْ لا يزال يفكّر أو يتحدَّث بإمكانية التطبيع مع بعض الصهاينة. فهم حين يتظاهرون يقولون لهؤلاء إنّ الصهيونيّة ملّة واحدة، لا حمائم فيها ولا صقور.

هل يتّخذ الشارع العربيّ المظاهرة القوميّة وسيلةً لحلّ معضلاته الداخليّة، ولزعزعة «النظام العام» ـ وهو ما تبرِّر به الأنظمةُ العربيّة قمعَها للمظاهرات في الشارع العربيّ؟ أم أنّ للأنظمة حساباتها في السماح، في فترات معينة، للجماهير بأن تنزل إلى الشارع؟ لنتذكرْ أنّه حتى الأمس القريب مَنَعَت السلطاتُ المغربيّة تظاهراتٍ مساندة للقضيّة الفلسطينيّة، وقمعتْ مظاهراتٍ أخرى تحتجّ على الأوضاع الداخليّة، لكنها احتفت رسميّاً بمظاهرة ٧ أبريل ووفَّرتْ لها كلَّ وسائل النجاح، وعلى رأسها الإعلامُ الرسميّ.

التظاهر هو أداة للتعبير وأداةٌ للضغط أيضًا. فالمتظاهرون الإنجليز والأميركيُّون عندما خرجوا إلى الشارع كانوا يَهْدفون إلى الضغط على حكومتيْهما من أجل أن تغيِّرا موقفهما من الكيان الصهيونيّ. وأما التظاهرات العربيّة فهي أساسًا أداةٌ للتعبير، ولكنْ يمكنها أن تمارس ضغطًا جزئيّاً على الأنظمة العربيّة. فمثلاً، عندما حَمَلَ ملكُ

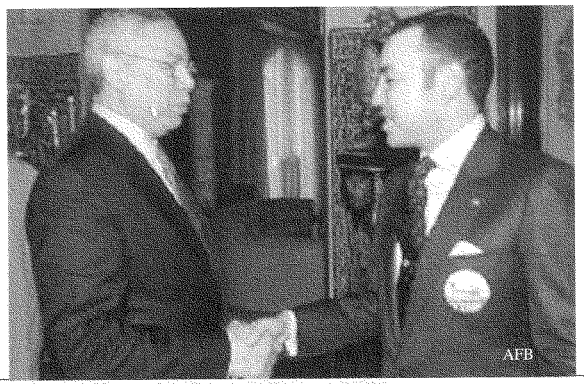

حمل ملك المغرب شارة «كلنا فلسطينيُّون» أثناء استقباله كولن باول

المغرب شارةَ «الجمعيّة المغربيّة لمساندة الكفاح الفلسطينيّ» أثناء استقباله وزيرَ خارجيّة أميركا كولن باول، والتي كُتِبَ عليها بالبنط الأسود «كلنا فلسطينيُّون،» كان ذلك تعبيرًا صريحًا منه بأنّه يستقبل باول ولكنّه منخرط بشكلٍ كاملٍ في ما عَبَّر عنه الشارعُ المغربيُّ في تظاهرة ٧ أبريل.

كما أنّ العالم الغربيّ، الذي هو في حاجة إلى استقرار بعض الأنظمة في المنطقة، سيجد نفسَه ملزمًا باتخاذ واقع تلك الأنظمة في الاعتبار حتى لا تتحوّل التعبيراتُ عن السخط والغضب إلى فعل ماديّ أكبر، فيترتّب على ذلك نوعٌ من عدم الاستقرار في تلك المنطقة.

ولقد أدت المظاهرات إلى التغيير في كثير من الحالات، كان آخرها في فنزويلا، حيث عاد الرئيس المخلوع بقرارٍ من الشارع. وكان للشارع في القرن العشرين دور مشهود في إحداث تغييرات جذريّة في أوروبا الشرقيّة. هذا الأمر يحصل عندما ينقطع حبلُ التواصل بين الشارع والحكّام. أمّا عندما يكون ثابتًا وقائمًا، فالتظاهرات لا تتّجه هذا الاتجاه. وعندما يكون هناك وعي كامل بارتباط التظاهرة بقضيّة معيّنة، فإنّ التظاهر يكون من النضج بحيث لا يَسْمح بالانحراف عن الهدف الذي نُظّمت التظاهرةُ من أجله. لذلك أعود إلى مسيرة الرباط في ٧ أبريل أو مسيرة ٨ أكتوبر ٢٠٠٠. فعندما يَخْرج الملايينُ إلى الشارع، وباتفاق الجميع أنّ الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة الداخليّة في المغرب ليست على ما يرام، ويَخْرج أيضًا مسؤولون حكوميُّون إلى الشارع، ولا نجد من المواطنين مَنْ يتوجّه إلى هؤلاء بالسؤال حول الوضعيّة الداخليّة للبلاد، لأنّ الكلّ منشغل بهدف واحد هو مناصرة الشعب الفلسطينيّ، أفلا يؤكّد هذا نضجَ المواطن المتظاهرِ وإدراكَه لهدف التظاهر؟

ولكنّ التظاهرات العربيّة هي إمّا مخطَّطٌ لها من طرف الأنظمة لخدمة هدف الحاكم، أو مؤطَّرةٌ من طرف هذا الحزب أو ذاك لخدمة أهدافه الإيديولوجيّة والتنظيمية، أو قد تكون حالةً من حالات التنفيس عن الجماهير ولو بشكل سطحيّ. السؤال هو: هل استطاعت التظاهرة الاحتجاجيّة العربيّة لصالح فلسطين أن تصل إلى أسماع أصحاب القرار السياسيّ العربيّ، حتى وإنْ لم نأملْ في التأثير فيهم؟

بل لنقلْ إنّ المسيرات الاحتجاجيّة العربيّة نجحتْ إلى حدٍّ ما في التأثير في هؤلاء!

كيف؟

بدءًا، أنا لست موافقًا على تصنيفكَ للمسيرات في عالمنا العربيّ. مثلاً، مسيرة الرباط الأخيرة هي مسيرةٌ شعبيّةٌ خالصة، وإنْ شارَكَ فيها رئيسُ الوزراء بصفته الكاتبَ الأولَ لحزب الاتحاد الاشتراكيّ. وهذه المسيرة لم تُمْنع كسابقاتها من المسيرات الشعبيّة لأنّ السلطة كانت مضطرةً للترخيص لها تحت ضغط المرحلة، لا لأنّها كانت تَرْغب في التنفيس عن الجماهير. فالسلطات في المغرب كان لديها انطباعٌ عن درجة الغليان التي توجد في الشارع المغربيّ، ولم تكن المسيرة مخطَّطًا لها رسميّاً، وإنْ كان مخطَّطًا لها من طرف «الجمعيّة المغربيّة لمساندة الكفاح الفلسطينيّ» وبتنسيق مع كل الأحزاب والنقابات وجمعيّات المجتمع المدنيّ. وما نحمد الله عليه في المغرب أنّ «الجمعية المغربيّة» ما تزال قادرةً على أن تنسّق عمل كلّ هذه الأطراف على طاولة واحدة، ليتفقوا على ضوابط معيّنة، وعلى طريقةٍ لتنظيم المسيرة يَغْلب على مناقشاتها طابعُ المسؤوليّة والجدّيّة. إضافةً إلى ذلك، كان المغرب قد شهد، طيلة الأيام السابقة على مسيرة الرباط، مئاتِ المسيرات العفويّة والمنظّمة المتضامنة مع الشعب الفلسطينيّ. ويجب ألا ننسى أنّ ثمّة مسيرات حصلتْ في مدن صغيرة، فخرج أبناؤها عن بكرة أبيهم: ففي مدينة صغيرة، كمدينة القصر الكبير في شمال المغرب، خرجتْ مظاهرةٌ عفويّة من ستّين ألف مشارك، لم يجيِّشهم أحد، للتعبير عن مساندتهم للشعب الفلسطينيّ. كما نُظّمتْ وقفاتٌ احتجاجيّةٌ قامت بها قطاعاتٌ مهنيّة

المغرب (١): حوار مع خالد السفياني حول فلسطين والشارع المغربيّ

متعددة، مثل المحامين والأطبّاء والمهندسين والتعليم العالي والطلبة. من كل هذا نستنتج أنّ التحرك كان شعبيّاً خالصًا، وقطاعاتيّاً محضًا منظّمًا من طرفِ المنظّمات الجماهيريّة. أردتُ أن أُوضحَ هذا الجانب حتى نزيلَ الغموضَ الذي حاول البعضُ أن يُحْدثه في مسيرة الرباط : وقد كان ذلك طبيعيّاً: فـفلسطين لها أعداءٌ في المغرب، نسمّيهم «المتصهينين،» ولا يُمْكن أن يرضيَهم أن يَخْرج من أجل فلسطين الملايينُ من المغاربة إلى الشوارع.

أما عن تأثير هذه المظاهرات في صنّاع القرار السياسيّ العربيّ، أَفَلا يمكن أن تَعْتبروا أنّ حمل الشّارة من طرف ملك المغرب أثناء استقباله باول نتيجةٌ مباشرةٌ لمسيرة الرباط، كما سبق أن ذكرتُ؟ أليس ذلك تعبيرًا عن انخراط القيادة السياسيّة العليا في البلاد في الموقف الشعبيّ، وتعبيرًا عن أنّ الملك يقول لأمريكا إنّ وراءه كلَّ هتافاتٍ ٧ أبريل وكلَّ معانيها؟ وخذْ مثلاً ثانيًا هو تأثيرُ حركةَ الجماهير المغربيّة في قضيّة مكتب الاتصال الصهيونيّ، الذي أُقفل بشكل رسميّ وطُرد مَنْ كان قائمًا عليه هنا، كما استُدعي القائمُ بأعمال مكتب الاتصال المغربيّ في إسرائيل. وخذوا مثلاً ثالثًا، هو اضطرارُ النظام المصريّ إلى إرضاءٍ جزئيّ جدّاً لمطلب الشارع المصريّ، عندما قرّر قطعَ علاقاته مع الكيان الصهيونيّ باستثناء العلاقة الدبلوماسيّة. صحيح أنّ هذا الموقف يدعو إلى الاستغراب، بالمقارنة مع وعي غربيّ تذهب فيه بعضُ البرلمانات الأوروبيّة إلى الدعوة إلى قطع العلاقات مع الكيان الإسرائيليّ. ومع ذلك، فهذا القرار في حدّ ذاته ما كان سيُتَّخذ إطلاقًا لو لم يتحرّك الشارعُ المصريّ.

سأعطيكم مقابلَ ما قلتموه جوابَ الرئيس المصريّ على مطالب الشارع المصريّ عند استقباله رؤساءَ التحرير في مصر. فقد قال إنّه لن يستجيب لنداءات الشارع، لأنّ ذلك يتعارض مع المصالح الإستراتيجيّة لمصر. أيْ أنّ الشارع في العالم العربيّ مازال يعامَلُ، من طرف الأنظمة، باعتباره غيرَ مدركٍ لمصالحه القوميّة. ونتيجةً لذلك، يظل التنازع بين «واقعيّة» الأنظمة العربيّة و«اندفاعيّة» الشارع العربيّ وفورته العاطفيّة، حيث الجماهير تقول ما تشاء دون أن يكون لذلك أدنى تأثير في التوجُّه العامّ للحاكم. فكيف يمكن الحديث عن تأثير الشارع العربيّ في خلفيّة اتخاذ القرار السياسيّ العربيّ؟

الكلام نفسه قاله رئيسُ بولندا قبل أن يطاح به من طرف الجماهير، وقاله زعماءُ آخرون وَجَدوا أنفسَهم محكومين بإرادات الشارع. الرئيس المصريّ لا يستطيع الضرب عرضَ الحائط بالتعليمات الأمريكيّة بشكل كامل، شأنه في ذلك شأن العديد من الحكّام العرب، إلاّ أنّه يدرك أنّ الشارع يمكنه أن يغيِّر النظام نفسَه إذا ما تمادى هذا في قطع أواصر التواصل معه. وإلاّ فكيف يمكننا تفسيرُ رفضِ مبارك استقبال وزير الخارجيّة الأمريكيّة؟ هل كان يُمْكن مجرّدُ التفكير في ذلك لولا ضغطُ الشارع؟ هذه إشارات بسيطة لا تأثيرَ حقيقيّاً لها في معركتنا الوجوديّة ضد إسرائيل، وفي موقفنا من الإرادة الأمريكيّة، لكنّها بداياتُ التأثير الجماهيريّ والرأي العام العربيّ في خلفيّات صياغة القرارات السياسيّة القوميّة. وإذا استمر الشارع العربيّ في التحرُّك فسوف يُضطرَّ بعض الحكام العرب المترددين حاليّاً إلى الارتقاء إلى نبض شوارعهم، أو إلى أن يخطئوا في حقّ شعوبهم وفي حقّ مكانتهم أيضًا. هذه هي سنّة الحياة، وطبيعة التاريخ.

لضمان استمرار الضغط على الحكّام العرب وإيصالِ صوت الشارع العربيّ إلى المجموعة الدوليّة، لا بدّ من الانتقال بهذه الحركة الشعبيّة من العفويّة والاندفاعيّة إلى العقلنة، وإلى محاولة تأطيرها في اتجاه محدد ومعروف المعالم والمقاصد. فهل هناك تفكير في إيجاد مثل هذا الإطار؟

في المغرب كل النضالات المرتبطة بالقضايا القوميّة هي نضالاتٌ مؤطَّرة. وحتى الكثير ممّا يَظْهر عفويّاً إنّما هو مؤطّر من طرف مكوِّناتٍ سياسيّة أو ثقافيّة أو جمعيّاتيّة. ولحدّ الآن، ميزةُ المغرب تَكْمن في أنّ له جمعيّةً واحدةً تُعنى بالشأن الفلسطينيّ على المستوى الشعبيّ، هي «الجمعيّة المغربيّة لمساندة الكفاح

الثابت في مظاهرة الرباط المليونيّة هو الإجماع الذي احترم الاختلاف

الفلسطينيّ.» ومنذ بداية انتفاضة الأقصى، و«الجمعيّة» تشتغل بتنسيق كامل مع منظّمات المجتمع المدنيّ الأساسيّة في المغرب، كما ذكرتُ سابقًا. وهذا ما يجعل هذه التظاهرات الضخمة لا تخرج عن هدفها على الإطلاق. طبيعيٌّ أن يكون هناك اختلافٌ في الراية التي يحملها هذا المواطنُ أو ذاك، لكنْ حتى الآن لم يَثْبت أنّ تظاهرةً نُظِّمتْ من أجل فلسطين وَقَعَتْ فيها انزلاقاتٌ أو خرجتْ عن أهدافها.

تاريخ التظاهرات في المغرب قد يُثْبت العكس. فقد كانت هناك انزلاقات مكشوفة. مثلاً، في التظاهرة من أجل مساندة العراق، خرج الإسلاميون عن الشعارات المتوافق عليها من طرف لجنة التنظيم التي كانوا طرفًا أساسيّاً فيها.

هذا لا يُعتبر تجاوزًا في اعتقادنا! إضافةً إلى أنّنا في المظاهرة من أجل العراق كنا في بدايات التماسّ بين مكوّنات السياسة المغربيّة؛ وطبيعيٌّ أن يَصدر هذا السلوك عن هذا الطرف أو ذاك. لكنْ في ما يتعلّق بالقضيّة الفلسطينيّة، التي تُشْرف «الجمعيّة» على التظاهر لفائدتها وتنظيم فعاليّات عديدة بشأنها، نستطيع أن نؤكّد أنه كانت هناك مواقفُ متعدِّدةٌ مشترَكة تتمّ عن طريق التوافق بين كافة الفصائل السياسيّة. مثالُ ذلك: نداءُ المجتمع المغربيّ إلى اجتماع قمّة عربيّة: فقد هُيِّئ هذا النداء من طرف «الجمعيّة،» ووُجِّه باسم كلّ المكوّنات الفاعلة، ولم يَعْترض أيُّ مكوّن عليه.

حين يستمع المرءُ إلى حديثكم، يخيَّل إليه أنّ المجتمع السياسيّ المغربيّ براء من كل الصراعات المذهبيّة والفكريّة وصراع المصالح وتسجيل المواقف، أو كأنّ المسيرات المناصرة لفلسطين تَخْرج فيها كلُّ التشكيلات المجتمعيّة بهدف المساندة الخالصة. غير أنّنا نؤكّد أنّ تاريخ الاحتجاج من أجل القضيّة الفلسطينيّة مليء بالإرادات الهادفة إلى استغلال هذه القضيّة من أجل أغراض ذاتيّة ومصالح ضيّقة.

قلتُ إنّني أتمنى أن يستمرّ هذا الإجماع الذي ظهر في مظاهرة ٧ أبريل. من المؤكّد أنّ البعض يحاول أن يستغلّ القضيّة. وهذا بالذات ما فَرَضَ علينا الاستمرارَ في العمل الجماعيّ، حرصًا على ألاّ تصبح القضيّة الفلسطينيّة قضيّةَ تصفية حسابات داخليّة، أو قضية مَنْ لا قضية له، أو مجالاً للمزايدة السياسيّة والمذهبيّة، لأنّ الخاسر الأكبر سيكون القضية الفلسطينيّة نفسها، ومعها كذلك المجتمعُ المغربيّ. لا أحد يُنْكر حصولَ خروقات في المظاهرة الأخيرة. لكنْ، بإجماع المكوّنات الأساسيّة في المظاهرة، استطعنا أن نُبْطل كلَّ المحاولات الهادفة إلى استغلال هذا الظرف التاريخيّ الحسّاس من طرف هذا الاتجاه السياسيّ أو ذاك التيّار النقابيّ. وكما لاحظتم، فإنّ مسيرة الرباط لم يكن فيها فرقٌ بين الإسلاميّ واليساريّ واليمينيّ والوسطيّ: فالكلّ كان مختلطًا. قد تجد بعضَ المجموعات الصغيرة، هنا وهناك، تحاول الخروجَ عن الإجماع أو التشويشَ على السير العاديّ للمظاهرة: وهي معروفة النوايا مكشوفةُ الأغراض، مشهودٌ لها بعدائها للقضية الفلسطينيّة. لكنّ الثابت في المظاهرة هو الإجماعُ الذي احترم الاختلاف. فقد كنتم تجدون خمسة مواطنين يسيرون جنبًا إلى جنب ويهتفون بالشعار نفسه، لكنّ أحدهم يَحْمل رايةَ حزب الله، والثاني يحمل رايةَ الاتحاد السوفيتيّ، والثالث يَحْمل صورةَ الشيخ أحمد ياسين، والرابع يحمل صورةَ ياسر عرفات، والخامس يحمل صورةَ غيفارا. وما نقوله عن هؤلاء الخمسة يَنْطبق على مختلف التوجُّهات التي كانت مشاركةً في المظاهرة. ولذلك لا أريد أن يُفْهم من كلامي أنّ الصعوباتَ غير موجودة. لكنّ الإجماع الذي تحقق في مسيرة الرباط الأخيرة يَجْعلنا نَأْمل في تجاوز مثل هذه الخروقات البسيطة.

شعارات الرباط الأخيرة أشَّرتْ على عدم نضج الشارع المغربيّ. وهذا يؤكّد أنّ القوّة المدنيّة المؤطِّرة لهذه الجماهير لم تَنْجح بعدُ في الوصول إلى مخاطبة عقل المواطن المتظاهر بدل وجدانه. فهي لم تتمكّن من تحسيس المواطنين بالأبعاد الخطيرة لتوظيف شعاراتنا في الإعلام الغربيّ بالخصوص من أجل تبرير السلوك العدوانيّ الصهيونيّ. فهل تتصوَّرون أنّ شعارًا مثل: «خيْبر

المغرب (١): حوار مع خالد السفياني حول فلسطين والشارع المغربي

خيْبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود» يمكنه أن يقدِّم رسالةً محددةً تَخْدم إستراتيجيّةَ الصراع العربيّ ـ الصهيونيّ؟ أوَليس من شأن هذا الشعار أن يحوِّل طبيعة هذا الصراع بين مظلوم وظالم إلى صراع دينيّ سيواجِه مقاومةً شديدةً من لدن الرأي العام الدوليّ؟ ألسنا بهذا الشعار أيضًا نَقْلب الحقائق التاريخيّة، بحيث نَنْسب النزعةَ الصهيونيّةَ إلى الديانة اليهوديّة وإلى بني إسرائيل الذين عاشوا إلى جانب المسلمين في شبه الجزيرة العربيّة وكافة الأراضي العربيّة الإسلاميّة؟ كما رَفَعَتْ مظاهرةُ الرباط شعارَ «شارون النازيّ والمجرم.» ألاَ ترون أنّ شخصنة الصراع قد تكون غايةً صهيونيّةً أساسًا؟ أَلَيْس من الأَوْلى في مثل هذه المظاهرات الحاشدة، التي تغطيها وسائلُ الإعلام الدوليّة، أن يتمّ الكشف عن الصورة الإجراميّة للصهيونيّة طيلة تاريخها الدمويّ؟ وأخيرًا، أليس من الأجدى التركيزُ على تصوير الصهيونيّة بوصفها إفرازًا للحركة الاستعماريّة الغربيّة التي عرفها العالمُ في القرنيْن التاسع عشر والقرن العشرين؟ فمن شأن هذا الشعار أن يؤثِّر أكثر في الضمير الغربيّ لأنّه يَجْعله في مواجهة تاريخه الدمويّ وأمام عقدة مساهمته التاريخيّة في إيجاد الصهيونيّة ودعمها. فكيف كنتم، وأنتم قوّة مدنيّة مؤطَّرة للجماهير، تفكِّرون في هذه الشعارات وتتوافقون حولها في غياب أدنى درجات الوعي النقديّ؟

دعني أقلْ لك إنّ أكبر شيء كنتُ فخورًا به في مظاهرة الرباط الأخيرة هو ما حمله المواطنون البسطاءُ من لافتات ومن لوحات. صدِّقْني أنّ الشعب المغربيّ أثبتَ أنّه شعبٌ مبدعٌ خلاّق، وأنّه يعيش حقيقة القضيّة الفلسطينيّة. فقد اندهشتُ اندهاشًا كبيرًا من الأشياء الكثيرة التي أنجزها المواطنون وأتوا بها بشكل تلقائيّ إلى المظاهرة. وهذا الجانب العفويّ مباحٌ في مثل هذه التظاهرات، التي لا يُمْكنها أن تكون حبيسةَ التصوُّر المنطقيّ والعقلانيّ والمعرفيّ الذي يبلوره المثقفون والأكاديميُّون.

أعود إلى مسألة الشعارات التي رُفعتْ في المظاهرة لأقول إنّه في إحدى المرّات أُنجزَ مَحْضرٌ مكتوبٌ رسميّاً من كل المكوِّنات التي دعت إلى المسيرة، وقد كان من بنود هذا المحضر أنّ الشعارات واللافتات يجب ألا تمسَّ المعتقدَ الدينيّة. وهَدَفْنا جميعًا إلى جعل كل الشعارات تسير في اتجاه إدانة الصهيونية لا اليهوديّة. لكنْ في مسيرة كمسيرة الرباط، عندما يَحْضر الملايين، لا يمكنك أن تَحْجب مثلَ هذه الشعارات بالكامل، مع أنّ إخواننا في التنظيمات الإسلاميّة المشاركة معنا انضبطوا للاتفاق.

أما تصوير شارون كوحش أو كنازيّ، فلم يكن مقصودًا في ذاته، وإنّما كان رمزًا فاضحًا لكلّ الجرائم الصهيونيّة. إضافةً إلى ذلك لم يكن شارون وحده هو مَنْ هاجمناه في المظاهرة؛ فنحن عندما اعتبرنا أنّ أحد الشعارات الأساسيّة في المسيرة هو أنّ التطبيع مع أيّ صهيونيّ يُعدّ خيانةً فإنّ ذلك يدلّ على أنّ الصهاينة عُمْلة واحدة لا فرق فيها بين حمائم وصقور. بل إنّنا عندما طالبنا في المسيرة بمحاكمة قيادات الكيان الصهيونيّ، لم نكن نستثني بيريس أو موفاز أو ايليعازر أو غيرَهم من قادة الإجرام الصهيونيّ. هناك قلّة من الناس يريدون أن يميِّـــزوا بين هذا وذاك داخل الكيـــان الصهيونيّ، لكنّنا واجهناهم وقلنا لهم في بياناتنا في المسيرة إنّهم يخدمون بمزاعمهم هاته المشروعَ الصهيونيّ. وقلنا إنّ شعاراتنا في مظاهرة الرباط كانت في حدود تسعين في المائة شعاراتٍ واعيةً وهادفةً ولا تحمل أيَّ نوع من الخلط الذي تحدثتَ عنه.

بما فيها شعارُ مقاطعة البضائع الأمريكيّة؟

طبعًا. هذا مطلب جماهيريّ، وسنعمل على تحقيقه بكل الوسائل.

المسألة ليست في أنّه مَطْلبٌ جماهيريٌّ أو نخبويٌّ، وإنّما المسألة هي: هل نحن درسنا هذا الشعارَ من كل جوانبه، وحدَّدْنا كلَّ مضاعفاته؟ هل هذا الشعار معقول ومنطقيّ؟

التظاهرات لا يمكنها أن تكون حَبيسة التصوّر المنطقيّ والعقلانيّ الذي يبلوره المثقفون

معقول جداً. بل هو المطلب الجماهيريّ الأكثر عقلانيّةً، مادام هو اللغة الوحيدة التي تفهمها أميركا. كان هدفنا من رفع هذا الشعار هو أن نُشْعر أميركا أنّ كل مصالحها الاقتصاديّة مهدَّدة إنْ هي استمرت في شراكتها في الإجرام الصهيونيّ، وأنْ نَضْغط على حكّامنا من أجل إعادة النظر في العلاقات الاقتصاديّة مع الولايات المتحدة الأميركيّة. والحقّ أنّ مقاطعة السلع الأميركية التي ننادي بها اليوم ليست تقليدًا جديدًا في المغرب. فالمغاربة كانوا من قبل قد قاطعوا البضائعَ الفرنسيّةَ في فترة مقاومتهم للاستعمار الفرنسيّ، ونَجَحتْ هذه المقاطعة بشكل كبير. فالمطلوب الآن من كل العرب، حكّامًا ومحكومين، أن يعيدوا النظر في علاقاتهم بكل الدول، لا بأميركا فقط، وأن يبنوا علاقاتهم معها انطلاقًا من مدى احترام تلك الدول للحق الفلسطينيّ والعربيّ.

إلى حين تحقيق هذا الحلم العزيز، هل تستطيعون أن تقودوا - باعتباركم قوّةً مدنيّةً تحظى بمصداقية كبرى داخل المجتمع المغربيّ - حملةَ مقاطعة البضائع الأمريكيّة من دون الاعتماد على قرار رسميّ بهذا الخصوص؟ وكيف لكم أن تحقّقوا هذا الهدف في ظلّ الممارسة اليوميّة للمواطن المغربيّ المتلهِّف على المنتوج الأمريكيّ؟ وكيف الوصول إلى سَنّ سياسة شعبيّة للمقاطعة مع استفحال ظاهرة العولمة واكتساح العالم بالشركات الكبرى المتعدِّدة الجنسيّات، وتنامي ظاهرة التمويه الاقتصاديّ بحيث بتنا نشتري بضائعَ أميركيّةً أو حتى إسرائيليّةً دون أن نعي ذلك؟

لا يمكننا أن ندّعي أننا وصلنا إلى وعي تامّ بأهمية مقاطعة البضائع الأمريكيّة. فنحن مانزال في بداية الطريق. ونحن متيقّنون من أنّنا سنصل إلى هذا الوعي. ودليلنا على ذلك ردودُ الفعل التي تلقيناها من مختلف شرائح المجتمع المغربيّ بعد مسيرة ٧ أبريل، وكانت كلُّها تطالب بتفعيل قرار المقاطعة الأمريكيّة. وعندما نقرر المقاطعة، فإننا لن نقاطع كلَّ شيء. فهناك رموز للاقتصاد الأمريكيّ يجب مواجهتها. ومعركتنا ستكون من هذا المنطلق.

من سلبيّات ظاهرة الاحتجاج العربيّ لفائدة فلسطين أنّها في الكثير من المحطات النضاليّة ارتبطتْ بالتيارات القوميّة أو بالتيارات الإسلاميّة، ولم نَعْمل على ربط القضيّة بالخط الإنسانيّ العامّ. وبعد الهجوم البربريّ على الفلسطينيِّين، بدأنا نلاحظ اهتمامًا بهذا الأمر الذي يؤشِّر على إمكانيّة تدويل ظاهرة الاحتجاج لفائدة القضيّة الفلسطينيّة. فكيف يمكن للقوى المدنيّة العربيّة، التي تؤطر ظاهرةَ الاحتجاج العربيّ، أن تتفاعل مع هذا المعطى الجديد؟

هذا التنسيق حاصل اليوم. ونحن نفكّر في تنظيم ندوة بين مختلف الجمعيّات غير الحكوميّة التي حضرتْ مؤتمرَ دوربان على صعيد البحر الأبيض المتوسط من أجل خلق شبكة متوسطيّة لدعم كفاح الشعب الفلسطينيّ. أما على المستوى العربيّ، فقد قرَّرنا في المؤتمر العربيّ العام، الذي ضمَّ القوميِّين والإسلاميِّين واليساريِّين، محاولةَ تفعيل شبكة دوليّة من المنظمات غير الحكوميّة التي ألحّت على اعتبار الصهيونيّة شكلاً من أشكال العنصريّة.

إنّ الصهيونيّة ما تزال تستعمل عقدةَ الهولوكوست ضد العرب والمسلمين في أوروبا وأمريكا وغيرهما. ومن الضروريّ أن يعرف العالمُ الحرُّ اليومَ أن ما تمارسه الصهيونيّة أخطر من النازيّة، ومن كل الجرائم التي عرفتها الإنسانيّة. ولذلك فمقارنة الصهيونيّة بالنازيّة ليست مقارنةً اعتباطيّةً، وإنّما لها هدف مباشر في تحسيس الرأي العام الغربيّ الذي تعاطف مع اليهود انطلاقًا من هذا الحادث التاريخيّ، وأن نُعْلمه أن عليه أن ينتظر عقدةَ ضميرٍ أقوى تجاه ما يقع حاليّاً للشعب الفلسطينيّ.

الرباط

خالد السفياني

رئيس الجمعيّة المغربيّة لمساندة الكفاح الفلسطينيّ.

المغرب (٢): الشارع العربيّ ـ بوادرُ تخلُّقِ الرأي العام

حصيلة حوار مع عبد الحق لبيض

المقرئ أبو زيد الإدريسي

التظاهر سياسيّاً ونفسيّاً واجتماعيّاً

من الناحية السياسيّة ترتبط المظاهرة، في الوعي البشريّ والإنسانيّ المعاصر، بأجواء الديمقراطيّة والاستنارة، والتنظيم التعاقديّ المعقلن للعلاقة بين الحاكم والمحكوم. وهي شكل من الأشكال الراقية في التعبير وإبداء المواقف، لا في سلميَّتها وحضاريَّتها فحسب، وإنما في كونها أيضًا إقرارًا عمليّاً وعريضًا بحقّ الشعوب في إبداء آرائها، واستغلالِ قوّتها حين لا تجدي القنواتُ التقليديّةُ الصامتةُ والهادئة.

ومن الناحية النفسيّة، تشكّل المظاهرة نوعًا من التنفيس عن حالة احتقان، وذلك عندما تمارس وسائلُ الإعلام تأطيرَها للجماهير، إو عندما تقوم أجهزةُ التعبئة (كالأحزاب السياسيّة والنقابات) بعمليّات شحن للمواطنين في اتجاه موقف سالبٍ في الغالب، أو موجبٍ في بعض الأحيان، من قضيّة أو شخص.

وإذا كان يَغْلب على الأمثلة التي ذكرناها الجانبُ السلبيُّ، فلأننا نتحفّظ كثيرًا على المظاهرات ذات الطابع الإيجابيّ، لأنّها غالبًا ما تكون مجيَّشةً في ظلّ الأنظمة الشموليّة التي تستغلّ المظاهرةَ من أجل أن تميِّعها وتحوِّلها أداةً من أدوات استضعاف الجماهير وإذلالها باسم الجماهير وعلى أيديها. فكثيرٌ من المظاهرات يتم تصنيعُها وتوجيهُها بطريقة القهر والاستخبارات من أجل إعلان موقفٍ مساندٍ للحاكم.

وأما من الناحية الاجتماعيّة، فإن المظاهرة تَحْشد كتلةً من الناس الذين تجمعهم روابطُ اجتماعيّةٌ تهدف إلى خدمة مصالح محددة؛ فقد تكون المظاهرة بمناسبة الأوّل من أيّار تعبيرًا عن التماسك النقابيّ لفئة محدَّدة. لكنّ المظاهرة قد تتجاوز بعدَها الاجتماعيّ عندما يتعلق الأمر بقضايا الأمّة؛ فمظاهرات مساندة العراق وفلسطين ذاتُ بعد اجتماعيّ ضامر إلى حدٍّ ما، وذلك لصالح بعديْها النفسيّ والسياسيّ.

تخلُّقُ الرأي العام في الوطن العربيّ

تتمثل الأداةُ المحرّكة والموجِّهة للشارع السياسيّ والاجتماعيّ في وجود رأيٍ عامّ فاعل ومؤثِّر. فبقدر ما يكون الرأيُ العامُّ قويّاً، تكون للشارع ديناميَّتُه الفاعلة، وقوّةُ شخصيّته الضاغطة على مصادر صياغة القرارات المصيريّة.

في العالم العربيّ هناك رأيٌّ عامّ بالمعنى المجرَّد، حيث يبلور الجمهورُ موقفًا نفسيّاً وعاطفيّاً وفكريّاً من قضيّة معيَّنة، مثل قضيّة الوحدة وقضيّة فلسطين. فالشعوب تحتاج دومًا إلى بلورة روح عامة، بعيدًا عن التفاصيل الدقيقة للموقف المعرفيّ والعلميّ. والسياسيّ الماهر، كما يقول منير شفيق، هو الذي تكون عينُه على الخطّ العامّ للجماهير، لأنّ الجماهير ـ عبر التاريخ ـ لم تخطئ في خطّها العامّ.

غير أنّ ما يفتقر الشارعُ العربيُّ إليه هو وجود رأيٍ عامّ سياسيّ خالص، يكون بمثابة خيارٍ ضاغط. وهذا الافتقار لا يعود بالأساس إلى الجماهير، وإنما إلى نمط الحكْم السياسيّ الذي يجب أن ينفتح على المزيد من احترام الديمقراطيّة. ففي «إسرائيل» مثلاً هناك رأيٌّ عامّ. فعندما تتحرك «الأمة الإسرائيليّة» في اتجاه الرغبة في أن تستبق خطوةً إلى الأمام في التدافع السياسيّ مع الفلسطينيِّين، يختار الرأيُ العامّ أمثال شارون؛ وعندما يستشعر الخطر يتراجع ليختار رجلاً مثل بيريس يقوم بدور «التلطيف.» وفي كلّ محطة من محطات الوعي النفسيّ والفكريّ والسياسيّ لتلك الأمّة، تبرز الانتخابات، الرمزُ الملائم لهذا الاختيار. وفي أوروبا رأيٌّ عامٌّ قائمٌ يَفْرض صوتَه على الخيارات الإستراتيجيّة للأمة، حتى في الاتجاه الخطإ. ففي قضيّة تحديد النسل، مثلاً، لم يتمكّن أيُّ حزب سياسيّ أو زعيم سياسيّ من ممارسة أيّ خطاب لإرغام المرأة على العودة إلى البيت والانشغال بالإنجاب من أجل إنقاذ المجتمع من الشيخوخة الديمغرافيّة؛ ذلك لأنّ الحركات النسائيّة من القوّة والتغوُّل بحيث تجعل أيَّ مسؤول سياسيّ يتكلم عن ضرورة أن تضحّي المرأة بمكتسباتها يعرّض نفسَه للإعدام السياسيّ.

لا شيء يمكنه أن يفتّ في عضد الفلسطينيّين مثل صمت الشارع العربيّ

في عالمنا العربيّ، لم نرقَ بعدُ إلى مجرد مراعاة الحدّ الأدنى من التوجُّهات والمشاعر والمصالح الحيويّة للمجتمع. فأنظمتُنا تسير في الاتجاه المضادّ لمصالح شعوبها. وهذا يدلّ على أنّ الرأي العام، بالمعنى السياسيّ، منعدمٌ لدينا، لأنّه لا يؤثّر في الحاكم لحظةَ تخطيطه لموقفه. ففي المغرب، مثلاً، هل تراعي السياسةُ الفرنكفونيّةُ الرأيَ العامَّ المغربيَّ تجاه المسألة اللغويّة، بشقَّيْها العربيّ والأمازيغيّ، وهو رأي عامٌّ له موقف واعٍ وشبهُ موحَّدٍ من الفرنكفونيّة غيرِ المبرَّرة بعد نصف قرن من الاستقلال؟ وأما في ما يتعلّق بالقضيّة الفلسطينيّة، فإنّ اختيارات الأنظمة العربيّة لم تتوافق، ولو في الحد الأدنى، مع جماهير الأمة العربيّة. فالشعب المصريّ غاضب وهائج وينزل إلى الشوارع، رغم شراسة القمع المسلّح، كي يقول للنظام: اقطعْ علاقتَكَ بـ «إسرائيل.» غير أنّ النظام المصري مصرٌّ على الالتزام بكامب ديڤيد التي لا تلتزم بها «إسرائيل،» ومصرٌّ على حماية السفارة الإسرائيليّة واستمرار أنشطتها بالكامل. ونجد الرئيس المصريّ يذهب في تصريحاته إلى الادّعاء بأنّ هذه العلاقة هي في صالح فلسطين، ولسانُ حاله: لو قطعتْ مصرُ علاقاتِها مع «إسرائيل» لَفَعَلَ شارون ما يريد. وكأنّ شارون لايفعل الآن ما يريد!

الرأي العام العربيّ والقضيّة الفلسطينيّة

رغم كل المعوّقات التي أتينا على بعض منها، والتي تبيّن أنّ «الدولة ضدّ الأمّة» بحسب تعبير برهان غليون، فإنّ الرأي العام العربيّ في بعده العاطفيّ والنفسيّ قد تحرّك لمساندة القضيّة الفلسطينيّة. إلاّ أنّ السؤال هو: هل استطاعت هذه المظاهرات أن تفيد القضيّة الفلسطينيّة في محطتها الحاليّة؟ من المؤكّد أنّها تمكّنتْ من رفع معنويّات الكفاح الفلسطينيّ. فعندما نتابع فضائيّةَ فلسطين، أو عندما نلتقي بإخوة من مجاهدي فلسطين، نحسّ بتأثير هذه المظاهرات، إذ لا شيء يُمْكنه أن يفتّ في عضد الفلسطينيّين مثل صمت الشارع العربيّ. وفي هذا الصدد نودّ أن ننبّه إلى الخطاب العدميّ والإحباطيّ التضليليّ الذي تمارسه بعضُ الجهات، عن حسن نيّة أو عن سوء نيّة، عندما تدّعي أنّ الشعب الفلسطينيّ ليس محتاجًا إلى المظاهرات لأنّها ليست خبزًا يؤكل، ولا رصاصًا يُطْلق على العدو، ولا دواءً يداوي الجروحَ. إنّ هذا الكلام يذكّرنا بالماديّة البدائيّة، ماديّةِ فيورباخ، أو ماديّةِ ما قبل ماركس. ذلك لأنّ الشعوب والأمم لا تعيش بالماديّات فحسب، وإنما يحرّكها الجانبُ المعنويُّ أيضًا. فلو كانت الأمورُ ماديّةً محضة، لما كانت هناك مقاومةٌ فلسطينيّةٌ تُذْكر، ولما بقي هناك أصلاً شعبٌ فلسطينيٌّ في الوجود. ولو كانت الأمور تُحْسب بحساب الماديّات لكانت دولةُ لبنان هي أكثر الدول انبطاحًا أمام العدوّ الصهيونيّ، نظرًا إلى الحدود الجغرافيّة المشتركة، وصغرِ البلد، وضعفِ موارده، وخروجِه من حربٍ طاحنةٍ مزّقتْه. لكنّ واقع الحال أنّ لبنان أقوى بلد في بلدان الطوق تماسكًا في موقفه السياسيّ ضد «إسرائيل،» وذلك من خلال إصراره على تحرير أرضه بالسلاح، ودعمِه المعنويّ والسياسيّ لجهاد حزب اللّه، ورفضِه للأطروحة الصهيونيّة ـ الأمريكيّة بتجريم هذا الحزب وتجريده من الأسلحة كما فعلتْ بعض الأنظمة العربيّة مع الحركات الإسلاميّة بحجّة مكافحة الإرهاب. إنّنا إزاء صراع بين ميزان الإرادات وميزان القوة، كما بلورهما الأستاذ عبد الإله بلقزيز. وبمنطق ميزان الإرادات، فإنّ هذه المسيرات والتظاهرات تلعب دورًا في دعم صمود الفلسطينيّين. وهي تُسْهم أيضًا في ردع وتخجيلِ المطبّعين. كما استطاعت أن تحرّك ضميرَ الرأي العام العالميّ، لأنّ المظاهرات التي خرجتْ في كل أنحاء العالم كانت استجابةً لتأثير الشارع العربيّ ـ وإلاّ فكيف السبيلُ إلى الوصول إلى ضمائر الشارع الأوروبيّ والأمريكيّ الذي تهيمن عليه وسائلُ الإعلام الصهيونيّة، وتكيّف فكرَه، وتخترق عقيدته المسيحيّةَ نفسَها عن طريق صهينة المذهب البروتستانتيّ اليمينيّ المتطرف؟

غير أنّ قوّة الشارع العربيّ ودرجات تأثيره قد يصيبها الضعفُ بفعل التدافع السياسيّ والمذهبيّ بين الأحزاب السياسيّة. ونستطيع أن نقدّم، بالمناسبة، شهادةً من تاريخنا السياسيّ القصير. فعندما انتمينا إلى الحركة الإسلاميّة في أواخر

المغرب (٢): الشارع العربيّ ـ بوادرَ تخلّقِ الرأي العام

السبعينيّات، كنا نذهب إلى التجمُّعات العامّة المناصرة للقضيّة الفلسطينيّة من أجل تحقيق هدفيْن: أن نساند القضيّةَ الفلسطينيّة، وأن نناكفَ الإيديولوجيّات المناوئة. وكنا ندخل في نوع من المزايدات والشعارات والشعارات المضادة مثل القول إنّ «فلسطين إسلاميّة» في مواجهة القول بأنّ «فلسطين عربيّة.» وأحيانًا تقع مشاداتٌ بالأيدي. وأحيانًا أخرى يخرج طرفٌ سعيدًا لمجرّد أنّه أفشل للطرف الآخر نشاطَه عن القضيّة الفلسطينيّة! لقد كانت، بحقّ، فترةً اتّسم فيها اللاعبون السياسيُّون والحزبيُّون بنوع من الطفولة والمراهقة السياسيّة. ونعتقد أنّ الحركة الإسلاميّة لم تكن في هذا الأمر بِدْعًا في الشارع السياسيّ العامّ في المغرب.

أما اليوم فهناك قناعة بأنّ حدّاً أدنى من النضج والتجرُّد للقضيّة يدفع إلى الاهتمام بها بعيدًا عن اللافتات والألوان. وهذا التحوُّل الذي طرأ على الحركة الإسلاميّة يكاد يطول معظمَ الأحزاب السياسيّة المغربيّة الأخرى. وأكبرُ دليل على ذلك توفُّرنا في المغرب على لجنة للتنسيق تنعقد دومًا لمساندة الكفاح الفلسطينيّ؛ وهي تتميَّز بكثير من التجرُّد والإخلاص والذوبان في القضيّة القوميّة، وتَحْرص على ألاّ ترفع لافتاتٍ وشعاراتٍ وعناوينَ تسمّي هذا أو تسمّي ذاك. وباتت كلُّ المشاكل تُحلّ عن طريق توحيد الشعارات واللافتات، والحرص على أن تكون معبِّرةً عن موقف من القضيّة لا عن الجهة التي تُبْرز هذا الموقف. ويبقى الإشكالُ الأساسُ الذي يَعترض لجنةَ التنسيق أثناء تنظيمها للمسيرات الاحتجاجيّة هو الواجهة أو الصفّ الأول من المسيرة؛ وهنا لا بدّ أن تتراصّ كلُّ الأطراف، فيقع نوعٌ من تبادل المواقع ونوع من الإرضاء والتمثيل الرمزيّ. وتمرّ نقاشاتُ لجنة التنسيق في أجواء ملائمة. ففي مسيرة الرباط الأخيرة كنّا جميعًا قد التزمنا، نظريّاً، بكل مقترحات لجنة التنظيم. غير أنّه أثناء التطبيق في الشارع الذي يموج بالملايين، يأتي الشبابُ الأغرارُ أو المندسُّون والمغرضون، ويأتي مَنْ تتلبسهم روحٌ تسمى بـ «السيكولوجيّة الجماعيّة،» فتقع بعضُ الرعونات والصبيانيّات، إلاّ أنّها تبقى محدودة.

المهمّ الآن هو كيف يمكننا أن نؤطِّرَ هذه الجاهزيّة و نخرجَ بها من الاندفاعيّة نحو العقلانيّة والوعي والاتّزان في التعاطي مع القضيّة الفلسطينيّة ومع القضايا القوميّة الأخرى. فاندفاع الجماهير يَفْتر مع مرور الزمن ـ وهذا شيء طبيعيّ في حياة الشعوب وفي سيكولوجيَّتها. والاندفاع في حدّ ذاته مؤشِّر على العاطفيّة والمزاجيّة، غير أنّه مطلوبٌ في حدّ ذاته: ففي قضيّة مأساويّة كالقضيّة الفلسطينيّة ينبغي أن تستمرّ الجماهيرُ في الانقذاف إلى الشارع يوميّاً، ويَنْبغي أن يكون صبيبُ تلك الاندفاعات قويّاً، مهما اقتصر على حمولة محدودة وعابرة كالحمولة العاطفيّة.

غير أنّ أفول جذوة الجماهير ليس دائمًا ذاتيّاً متعلِّقًا بالجماهير، وإنما تلعب فيه الأنظمةُ العربيّةُ دورًا كبيرًا حين تسخِّر أجهزتَها الاستخباراتيّةَ والأمنيّةَ من أجل عرقلةِ أو قمع كلّ محاولةٍ لمساندة الشعب الفلسطينيّ في كفاحه. ففي المغرب، مَثلاً، ومنذ أكثر من شهرين، أصبحتْ وزارةُ الداخليّة لا تستحيي من أن تسلِّم منعًا مكتوبًا لأيّ طرف تَقدَّمَ إليها بطلب رخصةِ تنظيم تظاهرة من أجل دعم الكفاح الفلسطينيّ. وفي الأردن، صرّح النظامُ أنّه سوف يَدْفع إلى المحاكم كلَّ شخص يتظاهر من أجل القضيّة الفلسطينيّة. وفي مصر، تطوّرتْ لغة الهراوات بشكل خطير، حتى إنّنا بتنا نسمع عن حالات استشهاد. وكذلك الشأن في البحرين، وغيرها من البلدان العربيّة.

لكنا مع كل ذلك مدعوّون إلى التفكير جديّاً في عمل يحوِّل هذه الاندفاعات وهذه الجاهزيّةَ الجماهيريّةَ إلى نوع من الاستمراريّة تَبْني الوعي وتؤسِّس الذاكرة وتتحوّل إلى ضغط فعليّ على الأنظمة. فأنظمتُنا تتجاهلنا وتَخْضع لأوامر أميركا وصندوق النقد الدوليّ، وهي أنظمة ـ بنيويّاً ـ مبنيّةً ضد الأهداف القوميّة والوطنيّة والدينيّة للأمة، لكنّها ليست، في نهاية المطاف، مُطْلقةَ القدرة على الصمود والتحصن من آثار الجماهير. إضافةً إلى ذلك فإنّ هذه الأنظمة في حاجة، ولو من باب التكتيك، إلى الاعتذار للسادة الآمرين بضغط الجماهير. نَذْكر في السياق ذاته أنه في حوار في مجلّة **نيوزويك**

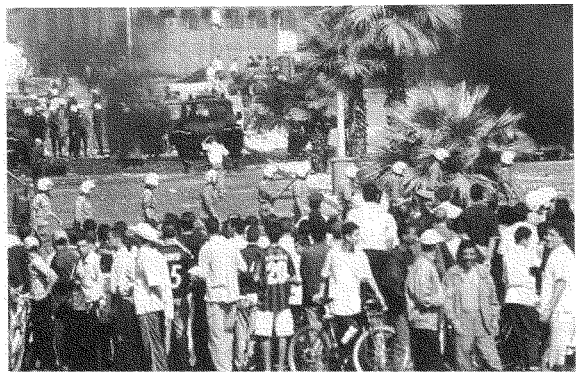

إذا استطعنا محاصرة أنظمتنا بعمل ممنهج أحدثْنا تغييرًا جزئيًا في خياراتها

سألت المحاورةُ الأميركيّةُ الرئيس مبارك عن أسباب عدم تمكنه من الضغط على ياسر عرفات للاستجابة لاقتراحات باراك وضغوط كلينتون في مباحثات كامب ديڤيد، فردد مقولةَ استقلاليّة الرئيس عرفات في اتخاذ القرارات التي يراها في مصلحة وطنه، وأنّ مصر لا تَمْلك مفاتيحَ الرئيس الفلسطينيّ، ثمّ عاد ليبرِّر عدم ضغطه على عرفات بفورة الشارع المصريّ وموقف الجماهير السلبيّ من كل ضغط قد تمارسه الإدارةُ المصريّة على القيادة الفلسطينيّة في اتجاه القبول بالشروط الإسرائيليّة ـ الأميركيّة. لذلك فإنّ الجماهير هي العمق الاستراتيجيّ الذي يَنْبغي أن ترتدّ إليه الأنظمةُ العربيّةُ للممارسة المانِعة تجاه إكراهات الراهن، وأظهرُها إكراهاتُ العدوّ الصهيونيّ والغطرسة الأميركيّة. فإذا استطعنا محاصرة أنظمتنا بعمل ممنهج ومنظّم يستعصي على الإذابة ويصمد في وجه القمع ووسائل التفتيت والإغراء وشراء الذمم، فبإمكاننا أن نصل إلى نتائج يُمْكنها أن تُحْدث تغييرًا ولو جزئيّاً في خيارات هذه الأنظمة وتجعلها، من ثمّ، أمام ضغط من جانبيْن: جانب داخليّ مؤثِّر يتمثل في قوة الشارع، وجانب خارجيّ ممثلاً في المؤسسات الدوليّة والإدارة الأميركيّة. وهو ما يضطرها آنذاك ـ في أقلّ تقدير ـ إلى انتهاج سياسة المناورة في تعاطيها مع القوتين الضاغطتين. ونعتقد أنّ قضايانا القوميّة، مثل قضيّة فلسطين، يُمْكنها أن تلعب دورًا كبيرًا في بلورة الوعي بأهميّة الشارع العربيّ ودوره المركزيّ في صياغة القرار السياسيّ العام للأمّة، بل وللقطر الواحد. فثمّة تعالقٌ بنيويّ بين القضايا القوميّة والقضايا الوطنيّة. في المغرب، على سبيل التمثيل لا غير، أَثْبتت الدراسات العلميّة وجودَ مخاطر كبيرة من الاختراق الصهيونيّ، سياسيّاً واقتصاديّاً وصحيّاً. والذي استطاع أن يَلْفت الانتباه إلى هذه المخاطر وأن يحدّ منها قليلاً هي الانتفاضة! ولطالما بُحّتْ حناجرُنا بالمطالبة بإغلاق مكتب الاتصال الإسرائيليّ بالمغرب، لكنّ الذي أغْلقه هو الانتفاضة. والرؤوس التي خرجتْ تساند، «باسم السلام» و«ثقافة السلام،» الصهيونيّةَ العالميّةَ علنًا وبدون استحياء هي اليوم مختبئةٌ في جحورها، بفعل جذوة الانتفاضة التي تفجرتْ في وجوههم وأبطلتْ دعاويهم.

لكنّ الوعي الإستراتيجيّ بقضيّة فلسطين غائبٌ عند الكثير من الأحزاب والنقابات والجمعيّات، للأسف. وكثير من هذه الجهات تعيش حالاتٍ من الأنانيّة الذاتيّة والانتكاسة والانغلاق على الشأن المحليّ والوطنيّ. وقد ينضاف إلى ذلك، الجهاتُ التي تهدف إلى الركوب على القضيّة الفلسطينيّة بغيةَ الوصول إلى تحقيق شعبيّة جماهيريّة أو تسجيل موقفٍ أو استعراض عضلاتٍ. وأمّا الجهات التي لها رؤية قوميّة أو دينيّة مركزيّة، فتعاني افتقارًا إلى الأدوات المعرفيّة الناضجة، وإلى آليّات الحداثة بمعناها التقنيّ. كما تشكو من غياب التنسيق في ما بينها، في حين يَحْتاج النضالُ من أجل القضايا القوميّة الكبرى، مثل قضيّة فلسطين، إلى تنسيق واسع وعميق. فنحن لا نقاتل إسرائيل وحدها، ولا نقاتل أميركا بمفردها، وإنما نقاتل قوةً دوليّةً تسود العالم وتَحْكمه بالتكنولوجيا وبالعمل الاستخباراتيّ الدوليّ وبالدراسات الإستراتيجيّة والمستقبليّة، وتحكمه بالحديد وبالنار وبالأسلحة النوويّة وبالمؤسسات الماليّة الخطيرة.

لذلك فإنّ الرهان الأكبر في هذا المجال يبقى على الجاليات العربيّة والإسلاميّة القاطنة في دول الغرب، والتي بدأتْ ـ من خلال تكتلها في المعاهد والمراكز والجمعيّات ـ تقيم علاقاتٍ تنسيقيّةً مع الجهات الحقوقيّة والمناضلة المستقلّة والجريئة. ونستطيع أن نَذْكر، على سبيل المثال لا الحصر، المركزَ الإسلاميَّ في ستراسْبور، الذي عَقَدَ شراكات واسعة مع جهات أوروبيّة ودخل في حوارات مسيحيّة وإسلاميّة وحوارات فرنسيّة ـ مغربيّة. ونَذْكر كذلك منظمة MASSومنظمة CAIR بالولايات المتحدة الأميركيّة، وهما منظّمتان تلعبان دورًا حيويّاً في مجال التواصل مع الشعوب الأخرى. ومن شأن هذه المنظّمات وغيرها أن تُسْهم في التأثير في الرأي العام الغربيّ، وأن تعمل على إخراج القضيّة الفلسطينيّة إلى بعدها الإنسانيّ. ولا بدّ من التفكير في البعد المسيحيّ

المغرب (٢): الشارع العربيّ ـ بوادرُ تخلّق الرأي العام

للقضيّة. فهناك مقدّسات مسيحيّة يُعتدى عليها من جهة العدوّ الصهيونيّ، ويُهدف إلى تهويدها أو طمس معالمها. ولم توفّر قواتُ شارون لا مدينةَ الناصرة برمزيّتها عند المسيحيّين وارتباطها بالمسيح عليه السلام، ولا بيت لحم، ولا كنيسةَ المهد. والحاصل أنّ المسيحيّين، عالمياً، هم، قوة ديمغرافيّة عملاقة، واهتمامهم بالقضيّة الفلسطينيّة ـ من زاوية الاهتمام العاطفيّ والدينيّ ـ يمكنه أن يلعب دورًا في عولمة القضيّة الفلسطينيّة بالمعنى الإيجابيّ للكلمة.

قراءة في سيمياء الشعارات في الشارع العربيّ والغربيّ

يدفعنا النقاشُ في موضوع عقلنة الرأي العام العربيّ ومأسسته، إلى الخوض في مسألة الشعارات التي يتبناها الشارعُ العربيُّ أثناء تظاهره لفائدة القضيّة الفلسطينيّة. وقد قيل عن الشعارات التي حملها المتظاهرون في المسيرات العربيّة، ومنها مسيرةُ الرباط، إنّها كانت راديكاليّةً وغيرَ عقلانيّة وبعيدةً عن الواقعيّة السياسيّة وغارقةً في النزوعات الرومانسيّة. والحقيقة أنّ ثمّة علاقة جدليّة بين طرفين: الطرف الأوّل هو لغة البواعث الذاتيّة، التي هي المفتاح الحقيقيّ لتحريك الإنسان. والطرف الثاني هو عقلنة الإطار والمقصد الذي تهدف إليه. والحكمة أن نجد نوعًا من التوليفة الناجحة بين الطرفين. فالجماهير تتحرّك في المظاهرات كحالةٍ عاطفيّة، وتَحْمل الشعارات التي تعبّر عن هذه الحالة، ومن ثمّ لا يُمْكن أن تتحوّل هذه المظاهراتُ أو تلك الشعاراتُ إلى حالة رياضيّة وعقلانيّة مجرّدة. لكنْ، من جهة أخرى، هناك إطار معقلن وموضوعيّ يجب أن تصبّ فيه حركتُنا من أجل تحقيق أهدافها. وإلغاء الطرف الأول باسم الطرف الثاني لا يُحْدث التظاهرة أصلاً. وإلغاء الثاني باسم الأول يَجْعلها تَخْرج إلى مقصدٍ غير مقصدها. فالواجب على القادة المؤطّرين أن يأخذوا بيد الشعوب بطريقة ذكيّة وبنوع من التربية المتدرّجة والعميقة، للوصول بها إلى مستويات من الانتظام الذاتيّ الداخليّ الذي يؤسّسه الوعيُ والرؤيةُ السلميّة، بحيث لا يَفْقد الإنسانُ حيويّتَه وروحيّتَه، عنيتُ عاطفيّتَه واندفاعيّتَه، أيْ قدرتَه على الصراخ في وجه الظلم والظالمين. وفي مستوى آخر لا بدّ لهذه الجماهير، مع مرور الوقت، من أن تنضبط بشكلٍ آليّ، بفعل عمليّة تربية بطيئة وعميقة.

ومع ذلك قد لا يكون مضرّاً بالمصلحة والمقصد أن تقول الجماهيرُ مثلاً: «سنرمي إسرائيل إلى البحر،» لأنّ هذا النوع من الخطاب لا يعبّر عن رغبة واعية ومؤسّسة تتحول إلى فعلٍ مخطّطٍ له ينتهي إلى الإصرار عليه، خاصةً بالنسبة إلى الشعوب الإسلاميّة التي تعاملتْ مع الصليبيّين والاستعمار. هذا الصراخ يعبّر عن حالة غضب، ويعبّر عن مضمون غير المضمون اللسانيّ للجملة، اللهم إلاّ إذا التقطتْه الصهيونيّةُ وبثّتْه بنوع من «التظلم» الذي يحرّك نوازعَ الخوف ممّا يسمى بـ «النازيّة الجديدة.»

ورغم أننا ننتمي إلى التيار الإسلاميّ، ونؤْمن بالكثير من مقولاته، وبعضُها عاطفيّ، فإنّنا انزعجنا كثيرًا من الشعارات التي رُفعتْ في المسيرات التي عرفها الغربُ وقادها عربٌ ومسلمون. فثمّة شعارات قد تُقْبل داخل العالم الإسلاميّ إلاّ أنّها تظل مخيفةً في بلد كفرنسا يَحْكمه اللوبي الصهيونيُّ. وقد بيّنّا ذلك بعد مسيرة ستراسبور في مارس ٢٠٠٢. كما أكّدنا أنْ لا جدوى من إطلاق شعارات باللُّغة العربيّة في مجتمعٍ نَهْدف إلى إيصال أصواتنا إليه.

وجملة الشعارات التي نُطْلقها في مسيراتنا، وبخاصة في الغرب، قد تستفيد منها الاستخباراتُ الصهيونيّة. ففي فرنسا ينتهج شارون سياسةً مقيتةً عن طريق سفارته في باريس، يَهْدف من خلالها إلى بثّ الرعب في نفوس اليهود الفرنسيّين الذين يزيدون عن سبعمائة ألف نسمة، وذلك من خلال إيهامهم بأنّهم في خطر لكي يتمكّن من تهجيرهم إلى «إسرائيل.» ولهذا فإنّ الشعارات لا بدّ أن تأخذ بعين الاعتبار هذا الأمر، خاصةً عندما تَصْدر عن الساسة في أعلى الهرم. نَذْكر في سنة ١٩٦٦، عندما سُئل عبد الناصر، «ماذا ستفعلون بإسرائيل إذا ما اندلعت الحربُ بينكم وكان الانتصار حليفكم؟» أنّه أجاب قائلاً: «سنرميهم في البحر.» هذه العبارة

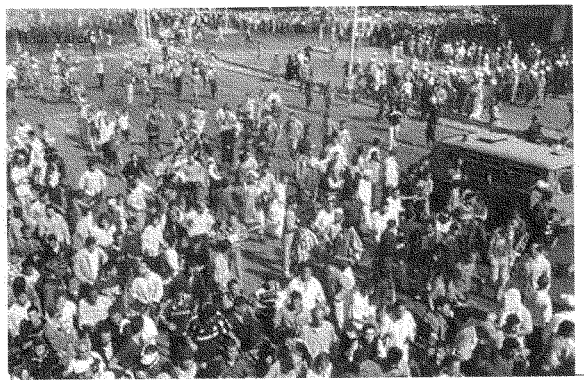

المسيرات تَدْعم الفلسطينيِّين وتسهم في ردع المطبِّعين وتخجيلهم

العفويّة التقطها الإعلامُ الصهيونيُّ ومطَّطَها وكرَّرها وقَرَعَ بها الأدمغةَ حتى وَرَّمها وابتزّ بها الضميرَ الأوروبيَّ والغربيَّ بطريقة انتهازيّة ماكرة رُفعتْ بها شعاراتُ جمع الأموال لدعم الصهيونيّة.

من بين الإشكالات التي طرحتْها الشعاراتُ التي رُدِّدتْ في المظاهرات في العالمَيْن العربيّ والإسلاميّ، درجةُ الخلط بين ما هو سياسيّ ودينيّ في التعاطي مع المسألة الصهيونيّة. وفي هذه النقطة بالذات قد يقع لبسٌ شديد. فإذا كنا نَقْصد بالديانة اليهوديّة تلك الديانةَ التي أوحى بها اللّهُ إلى موسى، والتي ضَمّنها في كتابه الموحى به إلى بني إسرائيل عن طريق التوراة، فلعلها لا علاقة للصهيونيّة بها، خصوصًا أنّ مؤسِّسي الصهيونيّة كانوا كلهم ملاحدة ومتطرفين في إلحادهم، وكانوا علمانيين وضدّ الديانة اليهوديّة ـ من هرتزل إلى بن غوريون، مرورًا بعازرا وايزمان. لكنْ إذا كان المقصود في تلك الشعارات الديانةَ اليهوديّةَ المحرَّفةَ، والتي تتضمن فكرةَ شعب اللّه المختار، وفكرةَ أرض الميعاد، وهيكل سليمان، وكلَّ المسمَّيات التي تصادر الهويّةَ الفلسطينيّةَ والهويّةَ العربيّةَ الإسلاميّةَ لفلسطين، وتلغي حقَّ شعب في الوجود باسم مسمًّى إيديولوجيّ خرافيّ، فلا شكّ أنّ هناك ترابطًا بنيويًّا والتحامًا قويًّا يصعب معهما الفصلُ بين اليهوديّة والصهيونيّة. ويمكننا أن نستأنس في هذا المقام بآراء روجيه جارودي في كتاب **الأساطير المؤسِّسة للسياسة الإسرائيليّة**، وآراء إسرائيل شاحاك في كتابه المتميز **التاريخ اليهوديّ والديانة اليهوديّة: وطأة ثلاثة آلاف سنة**. في الكتاب الأول، قسّم غارودي الأساطير الإسرائيليّة إلى أساطير دينيّة وأخرى سياسيّة، فدرس دراسة معمّقة الأرضيّةَ الدينيّةَ الموظَّفة بشكل انتهازيّ من قِبَل الصهيونيّة. أما شاحاك فقد دخل في أعماق المخيال والعقليّة الأنثروبولوجيّة والتاريخيّة للديانة اليهوديّة، وبيّن التعالقات البنيويّة والمنطقيّة التي تؤدي مباشرةً من الاعتقاد اليهوديّ إلى الموقف الصهيونيّ. وقد غاص لتأكيد ذلك في التوراة وتفاسيرها وفي التلمود وتفاسيره وفي الميشناح (وهي المدوَّنة الفقهيّة اليهوديّة)، وأخرج منها أشكالاً من العنصريّة عند اليهود واحتقار الآخرين وتجويز الإضرار بهم.

أمّا الفرق بين الصهيونيّ اليهوديّ والصهيونيّ العَلْمانيّ فهو فرق في المعتقدات التي لا تتجاوز القلبَ والعقلَ. إنّ الفرق بين هرتزل وبن غوريون وعازرا وايزمان الذين كانوا يوظِّفون المعتقدات اليهوديّة بنوع من الانتهازيّة لجذب يهود العالم، وبين اليهوديّ اليمينيّ المتطرِّف مثل مناحيم بيغن وإسحق شامير وآرييل شارون، هو فرق في الاعتقاد الروحيّ والفكريّ ولا علاقة له بالواقع العمليّ. ولهذا لا يعنينا أن يكون الذي كاد لفلسطين ودبَّر لها مثلَ هذه المأساة علمانيًّا كهرتزل، أو خرافيًّا كشارون. فالنتيجة عندنا واحدة.

وأما شعار ربط الصهيونيّة بالنازيّة، فهو يتغيّا النقرَ على البعد الأخلاقيّ الذي يُمْكنه أن يحرِّك الضميرَ الغربيَّ. ولأنّ اليهود أحسنوا ابتزازَ الضمير الغربيّ تجاه الهولوكوست، فإنّ هذا الضمير بات حسّاسًا ضدّ النازيّة. لهذا علينا أن ننبّه إلى أنّه من باب الاستنتاج المنطقيّ والرياضيّ أن يكون موقفُه من شارون كموقفه من هتلر. وإذا كان هذا الضمير يتأزَّم باستمرار ويحسّ بعقدةٍ تجاه ما اقترفه هتلر ضد الإنسانيّة، فإنّه مطالَبٌ اليومَ بأن يراوده الإحساسُ نفسُه تجاه ما يقترفه شارون ضد الشعب الفلسطينيّ. كما أنّ ربط الصهيونيّة بالنازيّة ليس من باب الشعارات الأخلاقيّة، وإنّما يستند إلى معطيات تاريخيّة دقيقة أَظْهرتْ مدى التنسيق التاريخيّ بين النازيّة والصهيونيّة. بل إنّ أعمدة الصهيونيّة كانوا عملاء للنازيّة. وقد اعتمد هتلر على جنرالات يهود في جيشه للقيام بأعمال ضد اليهود من أجل خدمة المسألة الصهيونيّة من خلال بثّ الرعب في يهود العالم كي يهاجروا إلى فلسطين. وشطرٌ لا يستهان به من اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين كانوا قد هاجروا تحت وطأة استغلال الصهيونيّة لأعمال النازيّة. وقد أَدْرج الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه **الصهيونيّة، النازيّة، ونهاية التاريخ** وثائق قيمة في هذا الموضوع. كما أدرج جارودي وثائق في شكل مراسلات سريّة بين مناحيم بيغن وعدد من رموز

المغرب (٢): الشارع العربيّ ـ بوادرُ تخلّقِ الرأي العام

الصهيونيّة الذين كانوا يراسلون هتلر سرّاً ويُغْرونه باضطهاد فئات محدودة من الشيوخ والأطفال اليهود، وذلك من أجل استثمار ذلك إعلاميّاً لتخويف الشباب الأقوياء البنية كي يهاجروا إلى فلسطين.

غير أنّ ما يجب تجاوزُه في شعاراتنا هو شخصنة الإرهاب والنازيّة في شخص شارون، حتى لا نَسْقط في فخّ التبسيطيّة. فشارون ليس بِدْعًا، بل هو يمثّل ظاهرة الصهيونيّة، ولذلك لا يُمْكن عزلُه عنها. ولا يُمْكن الحديثُ عن الحركة الصهيونيّة كحركة عدوانيّة وككيان إرهابيّ في شخص يمكن تنحيتُه لتغليط الرأي العام من أجل لملمة القضيّة وخداع الجماهير.

يبقى في نهاية هذا التحليل الحديثُ عن شعار المقاطعة كمطلب للشارع العربيّ والإسلاميّ. فرغم الأصوات التي تعلو هنا وهناك لإظهار لاجدوى مقاطعة أميركا تجاريّاً واقتصاديّاً مادامت البنياتُ الاقتصاديّةُ والتجاريّةُ للدول العربيّة مرتبطةً ارتباطًا عضويّاً بالاقتصاد والتجارة الأميركيّة، فإنّ ما يغيب عن ذهن أصحاب هذا الاتجاه الواقعيّ والبراغماتيّ أنّ القناعة أو الفكرة السامية الهادفة لبناء أمة أو لتحقيق الأهداف القوميّة النبيلة لا يتحققان مجّانًا. إنّ الوعي بمعركة المقاطعة، والوعي بوسائل المقاطعة أداةً استراتيجيّةً، يحتاجان إلى عمليّة بناء مستمرة ودائمة.

المقاطعة فعل ماديّ وفعل رمزيّ وفعل تربويّ. أما المقاطعة فعلاً ماديّاً، فلأنّ اقتصاد الدولة ـ مهما كان عملاقًا، كالاقتصاد الأميركيّ ـ يتضرّر ويهتزّ ويعيد حساباته، خصوصًا وأنّ الإنتاج الأميركيّ من الضخامة بحيث لا يُمْكنه أن يستمرّ إلاّ اعتمادًا على جلّ أسواق العالم. وإذا ما تحرّك في الشعوب العربيّة حسٌّ مقاطعة البضائع الأميركيّة، وحقّق ولو واحدًا في المائة من النجاح، فإنّ ذلك سيُعَدّ كَسْبًا عظيمًا للشارع العربيّ، مِنْ شأنه أن يُرْعب أميركا أكثرَ مما تفعله البياناتُ الرسميّةُ العربيّةُ الجوفاء.

وأما المقاطعة فعلاً رمزيّاً، فلأنّها تمسّ الرموزَ الثقافيّةَ لأميركا، مثل الماكدونالدز والمارلبورو وكوكاكولا وهوليوود وغيرها، وهي بالتحديد رموز الثقافة الشعبيّة التي تعطي صورة نمطيّة image de marque لأميركا. فنحن عندما ندعو إلى مقاطعتها في شعارات المسيرات التي ننظّمها فإنّنا نَهْدف إلى كسر العنجهيّة الأميركيّة، وإضعافِ نفوذها على الجماهير وتحريرِها من الاستلاب الثقافيّ الأميركي.

أما المقاطعة تربويّاً، فإنّها تتمثل في تربية الشعوب على التقليل من الاستهلاك والتقليل من الإقبال على المنتوجات الغربيّة حتى ولو كانت رديئة. فالماكدونالدر في أميركا هو زبالة المنتوجات الأميركيّة، إلاّ أنّها تحولتْ عندنا إلى مظهر من مظاهر الرقي الاجتماعيّ!

ولكنّ عمليّة المقاطعة، عمليّة تقنيّة وتخطيطيّة. وعلى الجهات المعنيّة أن تخطّط بالتدرّج بعمليّة المقاطعة، كأن توجّه في كل مرحلة بيانًا تنظيميّاً يسمّي هذا المنتوجَ أو ذاك، على أن يُؤْخذ في الاعتبار أنّ جزءًا من اقتصادياتنا الوطنيّة مرتبطٌ ارتباطًا عضويّاً بالاقتصاد الأميركيّ. ولكنّ المهمّ هو أن نتّفق الآن على المبدإ وأن نؤسّس له ونُشْرك الجماهير في حلقات تأطيريّة. والأساس من كل هذا هو أن تنخرس الألسنُ التي تشكّك في هذه المقاطعة بدعوى غيرتها على الاقتصاد الوطنيّ. ونَذْكر في هذا الصدد أنّ إحدى الصحف الاقتصاديّة الفرنكفونيّة في المغرب تَخْرج علينا بمانشيت عريض: «لنقاطعِ الدولارَ الأميركيّ.» غير أنّنا أثناء قراءتنا للموضوع نجده يثير مسألةَ لاجدوى مقاطعة البضائع الأميركيّة. لذلك فهي تدعونا باستهزاء وسخرية إلى مقاطعة الدولار، لأنّها تعلم أنّ أمر مقاطعة الدولار من اختصاص وزارة الماليّة ومكتب الصرف وبنك المغرب ـ وهذه مؤسسات لن تجرؤ على مجرّد التلويح بمقاطعة الدولار!

الرباط

المقرئ أبو زيد الإدريسي

أستاذ جامعيّ ونائب برلمانيّ. عضو الأمانة العامة لحزب العدالة والتنمية، وهو الحزب الإسلاميّ المرخّص له في المغرب. من مؤلفاته: **في المساندة النقديّة لحكومة التناوب**، و**فلسطين وصراع الإرادات**.

سان فرانسيسكو وواشنطن: حركة التضامن مع الشعب الفلسطينيّ في أميركا ـ نقد الشعارات والتكتيكات

ناصر البرغوثي

تقديم: انكسار التابو

مازالت فلسطين موضوعًا غيرَ شعبيّ في أميركا. ولكنّ كلمة «فلسطين» دخلتْ على الأقلّ في معجم حركة السلام في الولايات المتحدة، بعد عقودٍ من الكفاح المرير. فطوال الستينيّات والسبعينيّات والثمانينيّات والتسعينيّات كان مجرّدُ ذكر هذه الكلمة يثير سجالاتٍ لا تنتهي داخل اليسار على الأخصّ، وداخل حركة السلام بوجه عامّ. وكانت شعاراتٌ بسيطةٌ من قبيل «الحريّة لفلسطين!» تُعتبر جذريّةً جداً وغيرَ ملائمةٍ بالنسبة إلى التيّار السائد في حركة السلام داخل الولايات المتحدة، مع أنّ هذه الحركة سَبَقَ أنْ دعمتْ شعاراتٍ جذريّةً جداً في ما يخصّ نضالاتِ شعوبٍ أخرى: من جنوبيّ إفريقيا، إلى نيكاراغوا وڤيتنام، مرورًا بتيمور الشرقيّة وكوبا.

غير أنّ التابو (الحرْم) الذي مَيَّعَ شعارَ «الحريّة لفلسطين!» إلى محض «نعم للسلام في الشرق الأوسط!» انكسَرَ أخيرًا هذا العام. ففي العشرات من التظاهرات الضخمة في طول البلاد وعرضها باتت الشعاراتُ والهتافاتُ، التي كانت ذاتَ يومٍ متطرّفةً، شائعةً جداً. وهذه المقالة ستحلّل الشعاراتِ، والتكتيكاتِ، وتكوينَ حركة التضامن مع فلسطين في الولايات المتحدة، كاشفةً عن بعض العيوب ومواطنِ القصور التي تحدّ من فعّاليّة هذه الحركة ونجاحها. وسيستند هذا التحليل إلى مشاركاتٍ مباشرةٍ في هذه الحركة، وإلى ملاحظاتٍ من قَلْب الحدث «الفلسطينيّ» في أميركا.

ما الذي يَجْعل دعمَ القضيّة الفلسطينيّة في التيّار السائد في أميركا أمرًا بهذه الصعوبة؟

يَنْبغي القول إنّ حركةَ التضامن الأميركيّة مع الشعب الفلسطينيّ تَعْمل في أكثر البيئات عدائيّةً. فلقد اتّضح وضوحَ الشمس أنّ الولايات المتحدة ـ حكومةً، وإعلامًا، بل وشعبًا في غالبيّته ـ تقف وحيدةً في العالم في انحيازها المتطرّف إلى الجناح اليمينيّ المتطرّف في إسرائيل. وما نَشْهده في الولايات المتحدة ليس فقط اصطفافًا خلف التعويذة التقليديّة القائلة بوجود «واجبٍ مقدّسٍ يتمثّل في حماية أمن إسرائيل،» وإنّما استرضاءً مخجلاً ـ وعلى جميع الصُّعُد ـ لآرييل شارون وحكومتِه الفاشيّة. صحيحٌ أنّ ثمّة تغيُّراتٍ إيجابيّةً قد حصلتْ، مثْلَ تلفُّظِ بوش بكلمة «فلسطين» أو نَشْرِ بعضِ التحليلات الممتازة عن الموضوع؛ ولكنّ الولايات المتحدة تبقى، في نهاية المطاف، منحازةً إلى إسرائيل كما كانت منذ الأزل. فقد عمد اللوبي المؤيِّد لإسرائيل إلى اختطاف الكونغرس الأميركيّ رهينةً بين يديه، الأمر الذي أدّى إلى صدور أكبر عدد من القرارات المعادية للفلسطينيّين وللعرب (٥ قرارات متوالية حظيتْ بتأييد كلّ رجال الشيوخ ونوّاب الكونغرس تقريبًا، مع استثناءات لافتة). ولم تكلّ وسائلُ الإعلام الأميركيّة عن تضخيم الأكاذيب الإسرائيليّة في عقر دار المواطنين الأميركيّين المتسمِّرين أمام التلفزيونات، مقدِّمةً صورةً طافحةً بالإرهاب الفلسطينيّ و«الردّ الإسرائيليّ المبرَّر.» صحيح أنّه كانت ثمّة استثناءاتٌ في صحف **لوس آنجلس تايمز** و**نيويورك تايمز** و**واشنطن پوست**، لكنّ المحصّلة النهائيّة هي هي: فكثير من وسائل الإعلام الأميركيّة أشبهُ ببولدوزر يدمِّر أيّ بنيةٍ تحتيّةٍ صغيرة يمكن أن تحكي الروايةَ الفلسطينيّة للأميركيّين. وقد أحاط الرئيس بوش نفسَه بأكثر الحكومات عداءً للعرب في التاريخ المعاصر، بحيث بدت حكومةُ كلينتون نفسُها «وسيطًا نزيهًا.» وإذا بالقوّة الحاكمة، التي هي ثالوثٌ مكوّنٌ من الإعلام والشقّ التنفيذي والشق التشريعيّ من السلطة، مطلقةُ التأييد لإسرائيل. علاوةً على ذلك فإنّ الخطاب السياسيّ في أميركا، خلافًا لما نجده في أوروبا حيث اتحاداتُ العمّال والحركاتُ اليساريّة والأحزابُ الشيوعيّة قويّةٌ إلى حدٍّ ما وتستطيع من ثمّ أن تتحدّى الأحزابَ الحاكمة بقوّة، أكثرُ خضوعًا لتحكُّم هذا الثالوث المهيمن. ولذلك ليس ثمّة

سان فرانسيسكو وواشنطن: حركة التضامن مع الشعب الفلسطيني في أميركا ـ نقد الشعارات والتكتيكات

مصدرُ ملعوماتٍ للشعب الأميركيّ يُمْكن أن يشكّل بديلاً حقيقيّاً للإعلام الرسميّ السائد.

نتيجةً لذلك كلّه، مازالت غالبيّةُ الناس في الولايات المتحدة يتماهَوْن إلى حدٍّ كبير مع «مأساة» إسرائيل، من غير أن يَشْعروا بتعاطفٍ شديدٍ مع المأساة الحقيقيّة للشعب الفلسطينيّ. وهذا الواقع يَجْعل من الصعوبة بمكانٍ طرحَ شعاراتٍ جذريّةٍ في أيّ تجمُّع أو تظاهرة داخل التيّار الأميركيّ السائد. وأَنْ تَسِمَ حركةً ما بـ «الراديكاليّة» فذلك في وسائل الإعلام الأميركيّة أسوأُ من الحُكْم عليها بالموت، لأنّه سيَضْمن تلقائيّاً أن يَرْفض الجمهورُ شعاراتِ هذه الحركة وأن يَنْفضَّ عنها، خلافًا لحال بعض الدول الأكثر ديموقراطيّةً حيث وَصْفُ المرء بـ «الراديكاليّ» قد يكون أنيقًا ولبقًا chic بل قد يزيد من فتنة الحركة التي ينتمي إليها.

ولا بدّ هنا من تذكّر عاملٍ مهمّ آخر، وهو أنّ دور المثقفين في الولايات المتحدة طفيفٌ إلى حدّ كبير. وهذا يقود الخطابَ السياسيّ إلى درجة عالية من الديماغوجيّة التي تتحكّم بها الأموال. وفي هذا المجال فإنّ اللوبي المؤيّد لإسرائيل أكثرُ تجهُّزًا من حركة التضامن مع فلسطين، لأسباب كثيرة تاريخيّةٍ وماليّةٍ ولوجيستيّةٍ ـ وكلُّها تقع خارج نطاق هذه المقالة.

الشعارات الجديدة القديمة

ولكنْ على الرُّغم من هذه الصورة القاتمة، ثمّة تغيُّراتٌ أساسيّة حصلتْ في ما يخصّ قضيّةَ فلسطين. فقد شهدتْ سان فرنسيسكو، عاصمةُ الراديكاليّة الأميركيّة، مظاهرةً عارمةً في ٢٠ نيسان (أبريل) قُدِّرتْ بحوالى ٥٠ ألف شخص، وكان الشعارُ الرئيسيُّ لهذه التظاهرة: «أنْهُوا الاحتلالَ الإسرائيليّ! الحريّةُ لفلسطين الآن!» وخَلْفَ هذا الشعار سارت كلُّ مشارب الحركة السلاميّة الأميركيّة تقريبًا: من الكنائس، إلى اتّحادات العمّال والاتحادات المهنيّة، والحركة النسائيّة، وحركةِ حقوق المهاجرين، وحركةِ المثليّين والمثليّات، والحركةِ اليهوديّة التقدُّميّة. وكانت التظاهرة لافتةً في أنّ الآلافَ القليلةَ من المتظاهرين العرب الأميركيّين ذابوا حقّاً في فُسيفساءَ من عشراتِ آلافِ الأشخاص المتحدِّرين من عشرات الإثنيّات التي تُكوِّن المجتمعَ الأميركيّ. وكانت التظاهرة لافتةً أيضًا في اليافطات التي حملها المتظاهرون، وفي الهتافات التي أطلقوها (وهو ما سنتحدّث عنه بالتفصيل لاحقًا).

أمّا واشنطن دي سي، وهي عاصمةُ القوّة الأميركيّة وعاصمةُ الخداع الأميركيّ، فقد شهدتْ تظاهرةً أكبرَ من التظاهرة الأولى، ضمّت مئةَ ألف شخص، وتبنّتْ شعار «الحريّة لفلسطين!» شعارًا أساسيّاً؛ وكان الشعار الأساسيّ الآخر هو «عَوْلِموا الديموقراطيّة!» (في إشارةٍ إلى معارضة المتظاهرين لما يُسمّى عولمةَ اقتصاد العالم). هذه التظاهرة كانت الأُولى في تاريخ حركة التضامن مع الشعب الفلسطينيّ في هذه البلاد، من حيث عددُها، ومن حيث ربطُها بين قضايا الكوكب وقضيّةِ فلسطين.

والحقّ أنّ شعارات التظاهرتين كلتيهما، بل وعشرات المظاهرات الأميركيّة الأخرى الأصغر حجمًا، كانت متقدّمةً جداً من الناحية السياسيّة. فقد ربطتْ بين الاحتلال الاسرائيليّ من جهة، والمساعداتِ الأميركيّة لإسرائيل من جهة ثانية، والحربِ الأميركيّةِ على «الإرهاب» من جهة ثالثة. ودانت المآسيَ الإنسانيّةَ التي سبّبها التدميرُ الإسرائيليُّ الهائلُ مستخدمًا الأسلحةَ الأميركيّةَ وغيرَ الأميركيّة. وحدّدتْ مواطنَ الانحياز في الإعلام الأميركيّ. وأشارت إلى صعود الفاشيّة المطّرد في إسرائيل. ولكنّ أهم ما في هذه الشعارات صلابتُها في دعم الشعب الفلسطينيّ. فهي لم تكن كشعارات التجمُّعات من أجل «السلام في الشرق الأوسط،» بل كشعاراتِ حركةِ تضامنٍ مع فلسطين لأنّها تطالب بإنهاء الاحتلال الإسرائيليّ لكلّ الأراضي المحتلّة عام ١٩٦٧، وتفكيكِ المستوطنات اليهوديّة، وبناءِ دولة فلسطينيّة حرّة وقابلةٍ للحياة. وهذا فارقٌ نوعيّ مختلف عن الشعارات التي سبق أن تبنّتها حركةُ السلام الأميركيّة التقليديّة إزاء مسألة فلسطين.

ناصر البرغوثي

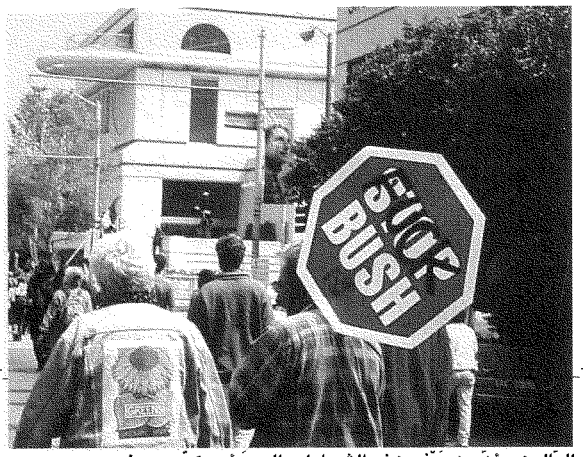

الدّال هو أنّ من يَرْفع هذه الشعارات اليوم أميركيّون بيض

جولةٌ على الشعارات والهتافات في سان فرنسيسكو

يُقال إنّ ما هو شعبيّ في سان فرنسيسكو اليوم يُنْبئ بما سيصير تيّارًا سائدًا في الولايات المتحدة خلال أعوام. ولهذا أجد من المفيد أن أَدْرس شعاراتِ وتكوينَ هذه التظاهرة الضخمة التي انطلقتْ في ٢٠ نيسان، آملاً أن يكون ذلك إشارةً إلى حدوثِ تغييرٍ ما داخل حركة السلام في أميركا.

إحدى الإشارات تقول: «هذا اليهوديّ يعارض التوسُّعَ الصهيونيّ،» وحَمَلها يهوديٌّ في منتصف العمر من سان فرنسيسكو. وقد أخبرني أنّه يؤيِّد تفكيكَ كلّ المستوطنات اليهوديّة في الضفّة الغربيّة وغزّة والقدس. شعارٌ آخر، حملتْه هذه المرّة شابّةٌ إيرانيّةٌ، يقول: «إيرانيّة يهوديّة تَدْعم [قيام] دولةٍ فلسطينيّة.» شعارٌ ثالث حملتْه ثلّةٌ من النِّسْوة الكهلات اللواتي ينتمين إلى مجموعة كنسيّة مسيحيّة من مقاطعة سونوما يقول: «جدّاتٌ ينادين بالسلام من خلال الموسيقى.» شعار رابع يقول: «فليَسْمعْ مخيمُ جنين هُتافاتِنا.» وهناك شعارٌ رفعتْهُ مجموعةٌ من النساء الكهلات أيضًا يقول: «مثليّات لتقويض الإرهاب الإسرائيليّ» (وشعارها بالإنكليزيّة: QUIT، أي: اتركوا!)؛ وقد أخبرتْني ناطقةٌ باسم هذه المجموعة أنّ هذه الأخيرة أرسلتْ بعثةً إلى مخيّم عايدة للاجئين الفلسطينيّين، وأنّ ما رأتْه هذه البعثةُ هناك جعل عضوات المجموعة مصمّماتٍ على فضح إسرائيل في الولايات المتحدة وعلى دعم حركة المقاومة الفلسطينيّة. وكان هناك رسمٌ على شكل علامة «قِفْ» تقول: STOP BUSH (أيْ: قِفْ يا بوش، أو أوْقفوا بوش). وهناك إشارة كُتب عليها: «العالم ليس خزّانَ وَقُودي»؛ وقد أخْبرَتْني رافعةُ هذه الإشارة أنّها مقتنعةٌ بأنّ الإفراط في استهلاك الطاقة في أميركا هو أساسُ قمع الشعب الفلسطينيّ لأنّ الولايات المتحدة ستَفْعل أيَّ شيء لحماية وصول النفط إليها من الشرق الأوسط. أحدُ الرجال المهنيّين كان يرتدي بذلةً ويَحْمل إشارةً كُتب عليها: «CNN IS FULL OF BUSHIT» (أيْ: سي أن أن مليئةٌ بخراء بوش)، ناحتًا بذلك بيْن كلمة Bush (اسم الرئيس) وBullshit (وهو الهراء، أو خراءُ الثَّوْر بالمعنى الحرفيّ). وقد وجدتُ هذه الإشارة دقيقةً جدّاً في وصفها لِما تغطّيه وسائلُ الإعلام الأميركيّة، لأنّ ما تغطّيه هو حقّاً خراءٌ أَطْلقه بوش! إشارةٌ أخرى تقول: «اقرأوا كُتُبَ إسرائيل شاحاك» (وهو الكاتب الإسرائيليّ الراحل الذي فَضَح الممارساتِ الإسرائيليّةَ العنصريّة، وجذورَ العنصريّة في الصهيونيّة، بل وفي اليهوديّة أيضًا). وحملتْ مجموعةٌ من الأفارقة الأميركيّين إشارةً كُتب عليها: «خمسون عامًا تَكْفي، يا شارون. دَعِ اللاجئين الفلسطينيّين يعودون إلى بيوتهم.» وحمل عمّال في قطاع الصحّة إشارةً كُتِبَ عليها: «بلايينُ الدولارات لمحاربة الإيدْز، لا لِدَعْم الأپارتايد الإسرائيليّ!»

هذه الشعارات تَعْكس فهمًا سياسيّاً متقدِّمًا لحقيقة الأوضاع في فلسطين، وهي شعاراتٌ كان صعبًا جدّاً قَبْلَ خمس سنوات فقط أن نَطْمح إلى رؤيتها اليوم. والأمر الدّال هنا ليس أنّ مثلَ هذه الشعارات لم يَرْفعها متظاهرون قبل عشر سنوات أو عشرين سنة، وإنّما الدّالُّ هو أنّ مَنْ يَرْفعها اليوم أميركيُّون بيضٌ وأفارقةٌ أميركيُّون ولاتينيُّون ونقابيُّون ومؤرِّخون وكتّابٌ ومحامون وهلمّجرّاً. وبكلمات أخرى، لقد قبل التيّار السائد في حركة السلام هذه الشعارات اليوم، كما تَشْهد على ذلك التظاهرتان المذكورتان.

هل إسرائيلُ الصهيونيّة شبيهةٌ بألمانيا النازيّة؟

كانت أكثرُ الشعارات إثارةً للخلاف هي تلك التي ساوت بين الصهيونيّة والعنصريّة أو النازيّة، إضافةً إلى تلك التي ساوت بين نجمة داوود والصليبِ النازيّ المعقوف. بالنسبة إلى الفلسطينيّين، المساواةُ بين الصهيونيّة والعنصريّة لا تحتاج إلى برهان. وأما المساواة بين إسرائيل الصهيونيّة والنازيّة الألمانيّة فليست بذلك الوضوح، ولكنّها محبّذة لدى قسم من الجالية العربيّة الأميركيّة. ذلك أنّ عددًا كبيرًا من العرب الأميركيّين يَشْعرون أنّ إسرائيل

سان فرانسيسكو وواشنطن: حركة التضامن مع الشعب الفلسطيني في أميركا ـ نقد الشعارات والتكتيكات

تَرْتكب جرائمَ تساوي في ضخامتها ما اقترفه النازيُّون ضدّ اليهود. وهذا بالطبع يُشكّل إهانةً عظيمةً للجالية اليهوديّة الأميركيّة، ومن ضمنها أكثرُ أفرادها تقدُّميّةً. وقد أَخْبرني متظاهرٌ فلسطينيٌّ، من رام الله أصلاً، أنّ هذا الشعار دقيق. ورأى أنّ نجمة داوود هي الرمزُ الذي اختارتْهُ إسرائيلُ لنفسها، وهو الشعار المرسوم على كل الدبّابات الإسرائيليّة وطائراتِ الأباتشي والـ ف ١٦ وكلِّ أسلحة الدمار الشامل الإسرائيليّة. وأضاف أنّ التكتيكات التي يتّبعها الجيشُ الإسرائيليّ، كتطويق المدن الفلسطينيّة والسعي إلى تجويعها وتدمير بناها التحتيّة، شبيهةٌ جداً بالتكتيكات النازيّة تجاه بولندا وروسيا؛ ومن هنا مساواةُ هذه بتلك. حين سألتُه إنْ كان يَكْره كلَّ اليهودَ أجاب: «لا بالتأكيد. إذا غادروا بلدنا فليس عندي أيُّ شيء ضدّهم.»

ومع ذلك فإنّ هذا الشعار الذي يجده كثير من العرب مقبولاً، إنْ لم يكن ضرورياً، إنّما هو شعارٌ يهين إلى حدٍّ ما قسمًا كبيرًا من حركة السلام في أميركا، وهي حركةٌ كان الصراعُ ضدّ اللاساميّة بندًا أساسيّاً في أَجَندتها على الدوام. أحد المتظاهرين الإسرائيليِّين اليساريِّين، وكان يَحْمل إشارةً كُتِبَ عليها: «أَوقِفوا البوغروماتِ ضدّ الشعب الفلسطينيّ» (والبوغروم تحيل على المجازر التي ارتكبَها قيصرُ رُوسيا ضدّ اليهود في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين)، أخْبَرَني أنّه يجد استخدامَ نجمة داوود مهينًا جداً للمشاعر لأنّها رمزٌ دينيّ للشعب اليهوديّ. وقال إنّ مجرّد استخدام حركة طالبان لاسم الله على عَلَمهم لا يبرِّر أن يَحْمل متظاهرٌ معادٍ لهم إشارةً تساوي بين اسم الجلالة والشرّ أو القمع، لأنّ هذا سيكون بالتأكيد أمرًا بالغَ الإهانة للمسلمين. حين سألتُه عن الإشارة التي يَحْملها قال إنّه لا يجد حَرَجًا من الاعتراف بأنّ إسرائيل تَرْتكب جرائمَ حربٍ شبيهةً في طبيعتها بالبوغروماتِ ضدّ اليهود في أوروبا.

المشكلة في مساواة إسرائيل الصهيونيّة بألمانيا النازيّة هي أنّ هذه المساواة غيرُ دقيقة من الناحية التاريخيّة، أولاً: وتنفِّر قسمًا كبيرًا من حركة السلام في أميركا كان يُمْكن أن يكون أكثرَ استعدادًا في دعمه لفلسطين، ثانيًا. إنّها مساواة غير دقيقة تاريخيّاً لأنّ ألمانيا النازيّة أَعْلنت الحربَ على العالم واحتلّت معظمَ أوروبا، فقتلتْ عشرات الملايين من بني البشر. ومن الواضح أنّ إسرائيل حتى الآن ليست قادرةً على ارتكابِ ١٪ ممّا فعله النازيُّون، ولا يبدو أنّها في حاجة إلى ذلك. والحقّ أنّ هناك مقارنتيْن أدقّ بكثير، هما اللتان تشبِّهان إسرائيل بجنوبيّ أفريقيا زمنَ الأپارتايد، أو بصرْبيا أثناء حكم ميلوشڤيتش. إذ لا جدال في أنّ إسرائيل تستطيع أن تَرْتكب أعمالاً واسعةً من أعمال التطهير العرقيّ بحقّ الفلسطينيِّين، وسبق أن قامت بذلك فعلاً. كما أنّها طبَّقتْ سلسلةً من القوانين التي تتجاوز أكثرَ قوانين جنوبيّ إفريقيا الأپارتايديّة عنصريّةً. هاتان المقارنتان بين إسرائيل من جهة، وجنوبيّ أفريقيا والعرب من جهة ثانية، فظيعتان بما يكفي لإدانة إسرائيل. والمبالغة في تصوير جرائم إسرائيل تُقلِّل في الواقع من هذه الجرائم لأنّها تَنْتقص من مصداقيّة حركة التحرير الفلسطينيّة. وقد قال لي متظاهر إسرائيليّ: صحيح أنّ إسرائيل تضع الفلسطينيِّين في معسكرات، وهذا أمرٌ رهيبٌ، لكنّ هذه ليست معسكراتِ إبادةٍ كغُرف الغاز النازيّة.

حقُّ العودة مايزال تابُوًا (حرْمًا)

شعار آخر أثار خلافًا شديدًا ولم يَحْظَ حتى اليوم بتبنِّي التيّار السائد في حركة السلام في أميركا، وهو حقّ عودة اللاجئين الفلسطينيِّين إلى ديارهم. فلقد جعلتْ وسائلُ الإعلام الأميركيّة هذا الشعارَ يبدو أشبهَ بوشوشات مضلِّلة، متبنّيةً وجهةَ النظر الإسرائيليّة القائلة بأنّ هذا الحقّ يؤدّي إلى انتحارٍ سياسيّ لإسرائيل، ومن دون أن تتوقّف وسائلُ الإعلام تلك مرّةً لتتساءل إنْ كان مقبولاً أن تَحْرم دولةٌ سكّانها الأصليِّين من العودة إلى بيوتهم

ناصر البرغوثي

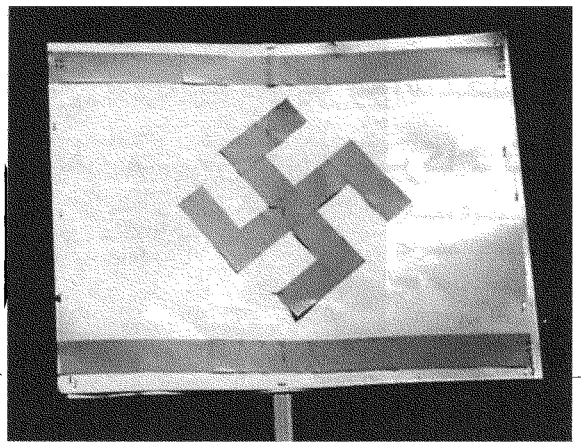

مساواة نجمة داوود بالصليب المعقوف أهانت قسمًا كبيرًا من حركة السلام في أميركا

لأنّها تريد أن تحافظ على طبيعتها الدينيّة اليهوديّة الحصريّة. والحقّ أنّ حركة التضامن مع فلسطين لم تنجحْ في شرح هذا الشعار للقسم الأعظم من حركة السلام في أميركا أو للجمهور الأميركيّ عامةً. وقد يعود السببُ في ذلك إلى أنّه يناقض إيمانًا راسخًا في أميركا، بل يكاد يكون إيمانًا أعمى، بأنّ لإسرائيل الحقّ في الحفاظ على «طبيعتها اليهوديّة.» فهذه هي، في النهاية، فحوى الصهيونيّة وجوهرُها.

التكتيكات والاتجاهات

فَضَحت انتفاضةُ الأقصى نفاقَ الولايات المتحدة (وأنا لا أميِّز هنا بين الحكومة والشعب، لأنّ النفاقَ يَنْطبق عليهما معًا). ذلك أنّ قيمَ الحريّةِ، والديموقراطيّةِ، والعدالةِ، ورفضِ الاضطهاد الدينيّ والاثنيّ، كلّها يُضْرب بها عرْضَ الحائط حين يتعلّق الأمرُ بفلسطين: وعلى العكس نجد تماهيًا شديدًا بين الحكومة والشعب الأميركيّ من جهة وإسرائيل بوصفها قوّةً كولونياليّةً استبعاديّةً من جهة ثانية. وهذا النفاق المخزي أدّى إلى بعض التغييرات المهمّة. فلقد فهمتْ حركةُ السلام في أميركا أخيرًا أنّ إسرائيل قوّةٌ استعماريّةٌ تهيمن على شعبٍ آخر. ولذا قامت هذه الحركةُ بتبنّي معظم المطالب الأساسية لحركة التضامن مع فلسطين، وعلى رأسها: إنهاءُ الاحتلال، وقيامُ دولة فلسطين مستقلّةٍ عاصمتُها القدس، وتعليقُ المساعدات الأميركيّة لإسرائيل إنْ لم يكن وقفها. وهذه كلُّها مكاسبُ ذاتُ دلالة كبيرة، وعلينا أن نَدْفع بها قُدُمًا.

قد يتساءل القارئُ: وَمَنْ يهمّه أمرُ حركة السلام في أميركا أصلاً؟ جوابي هو التالي: إنّ باستطاعة الحركات ذاتِ القاعدة الشعبيّة في أميركا أن تؤدّي إلى تغييرات سياسيّة، وقد فعلتْ ذلك حقّاً، ولاسيّما في ما يتعلّق بسياسة أميركا الخارجيّة، كما هو الحال مع جنوبيّ أفريقيا وڤيتنام وأميركا اللاتينيّة. إنّنا نعيش في عالمٍ أُحاديّ القطب، تهيمن عليه أميركا بصورة متزايدة. ويبدو أنّ على التغيير، لكي يكون فعّالاً، أن ينبثق من الولايات المتحدة، إلاّ إذا تمكّنتْ حركةُ التحرير الفلسطينيّة من فرض حلّها كأمرٍ واقع. ولكنّ هذه الحركة أثبتتْ حتى الآن عجزَها عن القيام بذلك لأسباب ثلاثة رئيسيّة هي: الدعمُ الأميركيّ الثابت لإسرائيل، وتواطؤُ النظام الرسميّ العربيّ، وانعدامُ التوازن انعدامًا هائلاً بين إسرائيل والفلسطينيّين من حيث القوّةُ العسكريّة. لذا، علينا أن نستنتج أنْ لا أملَ لدينا إلى أن نغيِّر موازينَ القوى، أيْ إلى أن نغيّر العواملَ الثلاثةَ أعلاه، وأولُّها الدعمُ الأميركيُّ لإسرائيل. وعلى حركة التضامن مع فلسطين في أميركا أن تركّز على هذا الهدف: إضعاف الدعم لإسرائيل في كل المستويات. عندها فقط قد تفكّر «القوّةُ الحاكمةُ» في أميركا بالتضحية بإسرائيل، كما سَبَق أن ضحّت بشاه إيران، وماركوس، وپينوشيه، وغيرهم، وافريقيا الجنوبيّة، وڤيتنام الجنوبيّة، وغيرها. إنّ القوّة الحاكمة في أميركا هي، قبل كلّ شيء، براغماتيّة وعمليّة. فهي لا تحبّ أن تحارب معركةً خاسرة. ولهذا علينا أن نَجْعل من دعم إسرائيل الأعمى معركةً خاسرة.

على صعيد الوضع المحليّ تَشْهد الولاياتُ المتحدة انحرافًا خطيرًا نحو اليمين، وقد ازداد هذا الانحرافُ في أعقاب أعمال ١١ أيلول (سبتمبر) الإرهابيّة. واليوم يهيمن على الخطاب السياسيّ في الولايات المتحدة الجناحُ اليمينيُّ في الحزب الجمهوريّ، الذي يسيطر عليه اليمينُ المسيحيُّ والضبّاطُ ذوو النزعة العسكريّة. والحقّ أنّ غالبيّة الشعب الأميركيّ تؤيّد الحلولَ العسكريّة للمشاكل التي بيَّن التاريخُ أنْ لا حلّ لها عسكريّاً، مثل مشكلة الإرهاب. وهذا يؤثّر سلبًا في قضيّة فلسطين، على مستوياتٍ ثلاثة:

١ ـ الشعب الأميركيّ اليوم يتفهّم عقليّةَ شارون العسكريّة، بل هو مُعْجَبٌ بها في سرّه، لأنّها تحاكي عقليّةَ القيادة العسكريّة الأميركيّة.

٢ ـ لقد تبنّى اليمينُ المسيحيُّ موقفًا إيديولوجيّاً صهيونيّاً في ما

سان فرانسيسكو وواشنطن: حركة التضامن مع الشعب الفلسطينيّ في أميركا ـ نقد الشعارات والتكتيكات

يخصّ قضيّةَ الصراع الفلسطينيّ ـ الإسرائيليّ، إلى حدٍّ أنّه لم يترك مجالاً لأيّ خطاب آخر. وهذا الموقف يقول بوضوح إنّ اليهود هم الشعبُ المختار، وإنّهم سكّان فلسطين الأصليُّون، وإنّ تأسيسَهم دولةً يهوديّةً شرطٌ أساسيّ لعودة المخلِّص.

٣ ـ أمّا الحزب الديموقراطيّ، الذي كان ومايزال أكثرَ تأييدًا لإسرائيل من الحزب الجمهوريّ، فيجد نفسَه في موقع الدفاع، الذي يدفعه إلى إظهار ولائه لإسرائيل بأن يصبح ملكيّاً أكثرَ من الملك (بوش) في هذا المجال.

نستنتج من هذا أنّ المؤسّسة السياسيّة في الولايات المتحدة مؤيِّدةٌ لإسرائيل إلى حدٍّ ميؤوسٍ منه، وأنّ على أيّ تغيير أن يُفْرض فرضًا على هذه المؤسّسة من تحت أو من الخارج، لا من داخلها. وأَقْصد بـ «من تحت»: المنظّمات والحملات ذاتِ القاعدة الشعبيّة. وأمّا «من الخارج» فيعني إيذاءَ المصالح الأميركيّة عبر العقوبات الاقتصاديّة من أجل إجبار المؤسّسة السياسيّة المذكورة على أن تكون أكثرَ توازنًا.

في ما تبقّى من هذه المقالة سأرسم مخطّطًا عامًّا لما أعتقد أنّه قد يكون استراتيجيّةً مُرْبحةً لحركة التضامن مع فلسطين داخل الولايات المتحدة. ولهذه الاستراتيجيّة المقترحة عناوينُ متعدِّدةٌ هي التالية:

القوّة الانتخابيّة. إنّ على رأس الإستراتيجيّات الفعّالة بناءَ الجاليتيْن العربيّة ـ الأميركيّة والمسلمة ـ الأميركيّة (اللتين تقدَّران بـ ٦ ملايين شخص في أميركا اليوم) ككتلة انتخابيّة. وأنا أؤمن بأنّ على حركة التضامن مع فلسطين في الولايات المتحدة أن تتوحّد مع تحالفٍ واسعٍ من القوى من أجل بناء حملة جديّة تَهْدف إلى إسقاط الأعضاء المؤيِّدين لإسرائيل داخل مجلس الشيوخ والكونغرس والطبقة السياسيّة الحاكمة، أمثال لانتوس وديلاي وفاينستاين وغيرهم. وعلى هذه الحملة أن تخاطب الجمهورَ الأميركيّ وتُثْبت لهم أنّ أفعال هؤلاء السياسيِّين مُضِرَّةٌ بمصالح أميركا على المدى البعيد، متجنِّبةً الموضوعاتِ الملتهبةَ أو التي يَسْهل إساءةُ فهمها. فمثلاً هناك اليوم دعمٌ كبيرٌ لفكرة إنشاء دولةٍ فلسطينيّة، ولكنْ ثمّة غموضٌ حول طبيعة هذه الدولة. دورُنا هو أن نزيل هذا الغموض وأن نحدِّدَ سماتِ هذه الدولة بطريقةٍ تتوافق وتطلُّعاتِ الشعبِ الفلسطينيّ. أمّا بالنسبة إلى هدفنا الآخر المتمثِّل بحقّ عودة اللاجئين الفلسطينيِّين، فهذا يحظى بتفهُّم أقلّ بكثير، ولذلك لا نستطيع أن نَجْعل منه اختبارًا للسياسيِّين الأميركيِّين، ولكنّ بإمكاننا أن نبدأ حملة تثقيفٍ حول هذا الحقّ (عبر الكتب وأفلام التوثيق والأفلام التي تروي أحداث النكبة). والحال أنّ هناك منظّمات عدّة، بما فيها اللّجنةُ العربيّة ـ الأميركيّة المناهِضةُ للتمييز ADC والمعهدُ العربيّ ـ الأميركيّ، قد أطلقتْ بداياتِ حملةٍ جديّةٍ تَهْدف إلى تحقيق ذلك.

السياسات التقدُّميّة. الاستراتيجيّةُ المُرْبحةُ الأخرى هي أن نتوحّد من أجل هزيمة قادة اليمين المسيحيّ. كثير من أعضاء حركة السلام في أميركا، بل ومن أعضاء الحزب الديموقراطيّ أيضًا، يَعْتقدون أنّ اليمين المسيحيّ هو عدوُّهم رقم ١؛ وهذا قاسمٌ مشتركٌ بيننا. إنّ هزيمة أيٍّ عضوٍ في اليمين المسيحيّ خطوةٌ في الاتجاه الصحيح. ولكي ننجح في ذلك، فإنّ على خطاب حركة التضامن مع فلسطين أن يكون أكثر انفتاحًا على الآخرين وأكثرَ تقدُّميّةً حيال قضايا العدالة الاجتماعيّة وحقوقِ العمال والحريّات المدنيّة داخل الولايات المتحدة. فلم يعد في وسعنا أن نبقى على الخطوط الجانبيّة، ثم نتوقّعَ أن يدعمنا الآخرون!

التشديد على المصالح المستقلّة للولايات المتحدة. هناك عدد كبير من الأميركيِّين الأحرار الذين يُروِّعهم تحكُّمُ اللوبي المؤيِّدِ لإسرائيل بالقرار السياسيّ في واشنطن (مع أنّ هذا اللوبيّ يمثِّل مصالحَ أقليّةٍ ضئيلةٍ هي ٢٪ فقط من الشعب). إنّ صورة بيبي ناتانياهو يلوي ذراعَ الكونغرس الأميركيّ، لكي يلوي هذا بدوره ذراعَ الرئيس بوش، لهي صورةٌ مُذِلَّةٌ ومهينة. فإذا فَضَحْنا هذا الواقع بطريقة صحيحة، استطعنا أن نربح أصواتًا أكثرَ إلى

مسيرة سان فرنسيسكو: عشرات الإثنيات ذابت في فسيفساء من ٥٠ ألف متظاهر

جانبنا. والواقع هو أنْ لا أحد، لا في أوروبا ولا في روسيا ولا في الصين، يَمْلك النفوذَ الذي يَمْلكه الصقورُ الإسرائيليُّون في الولايات المتحدة. ولا أحد، باستثناء السياسيِّين الإسرائيليِّين، يَمْلك الجرأةَ على أن يتدخَّل بمثل هذه الصفاقة في الأمور الداخليّة للولايات المتحدة. فهم يعلمون أنّهم قادرون على ذلك بسبب هيمنة العقيدة المؤيِّدة لإسرائيل على القوّة الحاكمة في أميركا. ولذلك فإنّ فضح هذه الهيمنة قد يُكسبنا أصدقاء جدًا كثيرين.

العصيان المدنيّ. تَفْتقر حركةُ التضامن مع فلسطين إلى التكتيكاتِ الدراماتيكيّة التي تبنَّتْها حركاتٌ أخرى، مثلُ حركة مناهضة الحرب ضدّ فيتنام أو الحركة المعادية لنظام الفصل العنصريّ (الأپارتايد). فهذه الحركات استخدمتْ إستراتيجيّاتِ العصيان المدنيّ والتأثيرات الدراماتيكيّة، في حين أنّنا نأيْنا بأنفسنا عن ذلك. وأَعْتقد جازمًا أنّنا فعلنا ذلك لأنّنا إلى حدّ كبير محافظون في توجُّهاتنا. فنحن لا نعرف كيف نَسْتعمل الحريّات التي حصلنا عليها في أميركا وكيف نوسِّع الهوامشَ المتاحة. علينا أن نعيد التفكير في هذه الأمور. وحقيقة الأمر أنّ هناك دلائلَ على بدايات تغييرٍ كهذا في جامعة بيركلي في كاليفورنيا، حيث يَعْمل الطلاّب بكدٍّ على حملةٍ لسحب الاستثمارات الأميركيّة من إسرائيل.

التحالف مع الجالية اليهوديّة التقدُّميّة. لعلّ أكثرَ توصياتي عرضةً للخلاف هي ضرورةُ بناء تحالفٍ مبدئيّ مع الحركة اليهوديّة التقدُّميّة في الولايات المتحدة، وهي حركةٌ يتبنّى اليومَ معظمُ أفرادها أهدافَنا الأساسيّة. إنّ الجالية اليهوديّة في أميركا جبّارة، ولكنّ لها أيضًا تاريخًا طويلاً من الانخراط في القضايا التقدُّميّة. وأعتقد أنّ كسب اليهود التقدُّميِّين إلى صفوفنا لا يمكن إلاّ أن يقوّي حركتنا وأن يعطينا أيضًا استشرافًا أبعدَ لكيفية حلّ المشكلة اليهوديّة بموازاة المشكلة الفلسطينيّة في فلسطين. إنّ أكبرَ خطرٍ يواجهنا، كحركة تضامن مع فلسطين في أميركا، هو أن نُنْعتَ بالعداء للحركة اليهوديّة، ومن ثمّ بالعنصريّة أو الأصوليّة أو ما شئتم من نعوت. فذلك سيُحْبط أيَّ أمل لدينا في إحداث تغييرٍ شعبيٍّ في الولايات المتحدة.

إنّ الاعتراض الرئيسي على هذه الإستراتيجيّة هو أنّ اليهود التقدُّميِّين، رغم تقدُّميّتهم في كل القضايا، لا يَدْعمون حتى الآن الحقوقَ السياسيّة والتاريخيّة للفلسطينيِّين، ومن ثم فَهُمْ لا ينفكُّون يدفعون إلى تمييع هذه الحقوق. ويشير المعترضون إلى فترة الثمانينيّات، حين أدّت تحالفاتٌ من هذا النوع في الولايات المتحدة إلى تبنّي شعارات غامضة مثل «نعم للسلام في الشرق الأوسط،» وهو شعار لا يتصدّى لصميم المشكلة، ألاَ وهي الحقوق التاريخيّة والسياسيّة للفلسطينيِّين. ومع أنّني أتّفق مع هؤلاء المعترضين، فإنّني أجد تبدُّلاً لدى قسم كبير من الجالية اليهوديّة التقدُّميّة باتّجاه تبنّي هذه الحقوق. وعلينا أن نواصل الإصرارَ على هذه الحقوق لأنّها لبُّ أيِّ تحالفٍ عتيد.

وختامًا نقول إنّ حركة التضامن مع فلسطين قد كسبتْ في هذا العالم زخمًا هامًا، على نحو ما يدلُّ حجمُ التظاهرات ونضجُ الشعارات التي رُفعتْ فيها. ولكنْ يبقى أمام هذه الحركة طريقٌ طويلةٌ ووعرةٌ من أجل هزيمةِ إيديولوجيا القوّة الحاكمة في أميركا، وهي إيديولوجيا مهيمنة ومؤيِّدة لإسرائيل. ومن أجل تحقيق ذلك يَنْبغي على هذه الحركة أن تَصُوغ التحالفات وأن تركِّز على الأهداف القابلة للتحقُّق.

سان دييغو، كاليفورنيا

ناصر البرغوثي

ناشط منذ أعوام طويلة في حركة التضامن مع فلسطين في الولايات المتحدة، وعضو في فرع سان دييغو للجنة الأميركيّة ـ العربيّة لمكافحة التمييز. يحمل شهادة دكتوراه في العلوم الحاسوبيّة من جامعة كولومبيا (نيويورك)، ويملك شركة للبرامج الإلكترونيّة.